57 Surah Hadeed Tafsir

57 Surah Hadeed Tafsir Nazamuddurrar fi Tanasub al aayaat wa Suwar li Baqaaee

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي

سورة الحديد (57)

سورة الحديد ▲

▲ تفسير الآيات رقم [1- 4]

{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4)}

ولما ختمت الواقعة بالأمر بتنزيهه عما أنكره الكفرة من البعث، جاءت هذه لتقرير ذلك التنزيه وتبيينه بالدليل والبرهان والسيف والسنان

فقال تعالى كالتعليل لآخر الواقعة: {سبح} أي أوقع التسبيح بدلالة الجبلة تعظيماً له سبحانه وإقراراً بربوبيته وإذعاناً لطاعته، وقصره، وهو متعد ليدل على العموم بقصره، وعلى الإخلاص بتعديته باللام وجعله ماضياً هنا وفي الحشر والصف ومضارعاً في الجمعة والتغابن ليدل على أن مما أسند إليه التسبيح هو من شأنه وهجيراه وديدنه وتخصيص كل من الماضي والمضارع بما افتتح به لما يأتي في أول الجمعة، والإتيان بالمصدر أول الإسراء أبلغ من حيث إنه يدل إطلاقه على استحقاق التسبيح من كل شيء وفي كل حال {لله} أي الملك المحيط بجميع صفات الكمال {ما في السماوات} أي

الأجرام العالية والذي فيها وهي الأرض ومن فيها وكل سماء ومن فيها، وما بينهما لأنها كلها في العرش الذي هو أعلى الخلق.

ولما كان الكلام آخر الواقعة مع أهل الخصـــوص بل هو أخص أهل الخصـوص، لم يحتج إلى تأكيد فحذف ما جعلا للخافقين كشـيء واحد لأن نظره لهما نظر علو نظراً واحداً لما أخبر به عنهما من التنزيه فقال: {والأرض *} أي وما فيها وكذا نفس الأراضـي كما تقدم، فشمل، ذلك جميع الموجودات لأنه إذا سبح ذلك كله فتسبيح العرش بطريق الأولى وتنزيه هذه الأشـياء بما فيها من الآيات الدالة على أنه سـبحانه لا يلم بجنابه شـائبة نقص، وأن كل شـــيء واقف على الباب يشـاهد الطلب، قال القشـيري: التسبيح: التقديس والتنزيه، ويكون بمعنى سباحة الأسرار في بحار الإجلال، فيظفرون بجواهر التوحيد، وينظمونها في عقد الإيمان، ويرصـــعونها في أطواق الوصلة.

ولما قرر ذلك، دل على أنه لا قدرة لشـــيء على الانفكاك عنه، وأن له كل كمال، فهو المستحق للتسبيح والحمد فقال: {وهو} أي وحده {العزيز} الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء {الحكيم *} الذي أتقن كل شيء صنعه.

وقال الأسـتاذ أبو جعفر بن الزبير العاصـــمي في برهانه: لما تقدم قوله سبحانه وتعالى {فلولا تصدقون} [الواقعة: 57] وفيه من التقريع والتوبيخ لمن قرع به ما لا خفاء به، ثم اتبع بقوله تعالى {أفرءيتم ما تمنون} [الواقعة: 58] الآيات إلى قوله {ومتاعاً للمقوين} [الواقعة: 73] فعزروا ووبخوا على سوء جهلهم وقبح ضـلالهم، ثم قال سـبحانه وتعالى بعد ذلك {أبهذا الحديث أنتم

مدهنون} [الواقعة: 81] واستمر توبيخهم إلى قوله: {إن كنتم صادقين} [الواقعة: 87] فلما أشارت هذه الآيات إلى قبائح مرتكباتهم، أعقب تعالى ذلك تنزيهه عز وجل عن سوء ما انتحلوه وضلالهم فيما جهلوه فقال تعالى {فسبح باسم ربك} [الواقعة: 69] أي نزهه عن عظيم ضلالهم وسوء اجترائهم، ثم أعقب ذلك بقوله {سبح لله ما في السماوات والأرض} أي سبح باسم ربك، فهي سنة العالم بأسرهم

{وله أسلم من في السماوات والأرض} [آل عمران: 83] {سبح لله ما في السماوات والأرض} ثم أتبع ذلك بقوله: {له الملك وله الحمد} فبين تعالى انفراده بصفة الجلال ونعوت الكمال، وأنه المتفرد بالملك والحمد وأنه الأول والآخر والظاهر والباطن إلى قوله: {وهو عليم بذات الصدور} فتضمنت هذه الآيات إرغام من أشير إلى حاله في الآية المتقدمة من سورة الواقعة وقطع ضلالهم والتعريف بما جهلوه من صفاته العلى وأسمائه الحسنى جل وتعالى، وافتتحت آي السورتين واتصلت معانيها ثم صرف الخطاب إلى عباده المؤمنين فقال تعالى {آمنوا بالله ورسوله} واستمرت الآي على خطابهم إلى آخر السورة- انتهى.

ولما أخبر بذلك، دل على وجه مصرح بما أفهمه الأول من تسبيح السماوات والأرض بقوله: {له} أي وحده {ملك السماوات والأرض} أي وملك ما فيهما وما بينهما ظاهراً وباطناً، فالملك الظاهر ما هو الآن موجود في الدنيا من أرض مدحية وسماء مبنية وكواكب مضية وأفلاك علية ورياح محسوسة وسحاب مرئية- وما تفصل إلى ذلك من خلق وأمر، والملك الباطن الغائب

عنا، وأعظمه المضـــاف إلى الآخر وهو الملكوت، قال القشـــيري: الملك مبالغة من الملك يعني بدلالة الضـمة، قال، والملك بالكسـر أي القدرة على الإبداع فلا مـالك إلا الله، وإذا قيـل لغيره: مـالك، فعلى المجـاز بـالأحكـام المتعلقة في الشـريعة على ملك الناس أي بتصـحيحه أو إفسـاده ونحوه ذلك، فالآية من الاحتباك: ذكر ما بين السـماوات والأرض أولاً دليلاً على حذف ما بينهما ثانياً، وذكر الخافقين ثانياً دليلاً على حذف مثل ذلك أولاً ليكون التسبيح والملك شاملاً للكل.

ولما كان ذلك مما لا نزاع فيه، وكان ربما عاند معاند، دل عليه بما لا مطمع فيه لغيره فقال مقدماً الإحياء لأنه كذلك في الخارج ولأن زمن الحياة أكثر لأن البعث حياة دائمة لا موت بعدها: {يحيي} أي له صـفة الإحياء فيحيي ما يشـاء من الخلق بأن يوجده على صـفة الإحياء كيف شـاء في أطور يتقلبها كيف شـاء وكيف يشـاء ومما يشـاء {ويميت} أي له هاتان الصـفتان على سـبيل الاختيار والتجد والاسـتمرار، فهو قادر على البعث بدليل ما ثبت له من صفة الإحياء. ولما كان هذا شاملاً للقدرة على التجديد والإعادة، عم الحكم بقوله: {وهو على كل شـيء} أي من الإحياء والإماتة وغيرهما من كل ممكن {قدير *} أي بالغ القدرة إلى حد لا يمكن الزيادة عليه.

ولما أخبر بتمام القدرة، دل على ذلك بقوله: {هو} أي وحده {الأول} أي بالأزلية قبل كل شـيء فلا أول له، والقديم الذي منه وجود كل شـيء وليس وجوده من شـيء لأن كل ما نشاهده متأثر لأنه حقير، وكل ما كان ما كان

كذلك فلا بد له من موجد غير متأثر {والآخر} بالأبدية، الذي ينتهي إليه وجود كل شيء في سلسلة الترقي وهو بعد فناء كل شيء ولو بالنظر إلى ما له من ذاته فلا آخر له لأنه يستحيل عليه نعت العدم لأن كل ما سواه متغير، بنوع من التغيير جاز إعدامه، وما جاز إعدامه فلا بد له من معدم يكون بعده ولا يمكن إعدامه.

ولما كان السبق يقتضي البطون، والتأخر يوجب الظهور، وكانا أمرين متضادين لا يكاد الإنسان يستقل بتعلقهما في شيء واحد، نبه على اجتماعهما فيه، فقال مشيراً بالواو إلى تمام الاتصاف وتحققه: {والظاهر} أي بالأحدية للعقل بأدلته الظاهرة في المصنوعات بما له من الأفعال ظهوراً لا يجهله عاقل، وهو الغالب في رفعته وعلوه فليس فوقه شيء {والباطن} بالصمدية وعن انطباع الحواس وارتسام الخيال وتصور الفهم والفكر وبتمام العلم والحكمة بما له من العظمة في ذاته بكثرة التعالي والحجب بطوناً لا يكتنه شيء، وقال القشيري: الأول بلا ابتداء، الآخر بلا انتهاء. الظاهر بلا خفاء، الباطن بنعت العلا وعز الكبرياء- انتهى، والعطف للدلالة كما أشير إليه على الإحاطة التامة لأنها لما كانت متضادة كانت بحيث لو أعريت عن الواو لربما ظن أن وجودها لا على سبيل التمكن، فلا تكون محيطة بل مقيدة بحيثية مثلاً فجاءت الواو دلالة على تمكن الوصف وإحاطته وإنه واقع بكل اعتبار ليس واحد من الأوصاف مكملاً لشيء آخر ولا شارحاً لمعناه، فهو أول على الإطلاق وآخر كذلك، وظاهر حتى في حال بطونه وباطن كذلك، وهذا على الأصل فإن صفاته تعالى محيطة فلا إشكال، إنما

الإشـكال عند الخلو من العطف فهو الأغلب في إيرادها كما آخر الحشـر، ولعل ذلك مراد الكشـاف بقوله: إن الواو الأولى معناها الدلالة على الجامع بين الصـفتين الأولية والآخرية، أي جمعاً هو في غاية المكنة، والثالثة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء، وأما الوسطى فعلى أنه الجامع بين مجموع الصـفتين الأولين ومجموع الصـفتين الأخيرتين، فهو المسـتمر الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية. انتهى.

ولما كان من ظهر لشـيء بطن عن غيره، ومن بطن لشـيء غاب عنه علمه، وكان سبحانه في ظهوره على ذلك بمعنى أنه ليس فوقه شـيء، وفي بطونه بحيث ليس دونه شـيء، فقد جمعت الأوصـاف إحاطة العلم والقدرة، أعلم نتيجة ذلك فقال: {وهو بكل شيء عليم *} أي لكون الأشياء عنده على حد سـواء، والبطون والظهور إنما هو بالنسـبة إلى الخلق، وأما هو سـبحانه فلا باطن من الخلق عنده بل هو في غاية الظهور لديه لأنه الذي أوجدهم، وهذا معنى ما قال البغوي رحمه الله تعالى: سـأل عمر رضـي الله عنه كعباً عن هذه الآية فقال: معناها أن علمه بالأول كعلمه بالآخر، وعلمه بالظاهر كعلمه بالباطن– انتهى.

لأن العلم يستلزم القدرة على حسبه. ولما كان الصـانع للشـيء عالماً به، دل على علمه وما تقدم من وصفه بقوله: {هو} أي وحده {الذي خلق السماوات} وجمعها لعلم العرب بتعددها {والأرض} أي الجنس الشـامل للكل، أفردها لعدم توصلهم إلى العلم بتعددها {في ستة أيام} سناً للتأني وتقريراً للأيام التي

أوترها سابعها الذي خلق فيه الإنسان الذي دل خلقه باسمه {الجمعة} على أنه المقصود بالذات وبأنه السابع على أنه نهاية المخلوقات– انتهى.

ولما كان تمكن الملك من سـرير الملك كناية عن انفراده بالتدبير وإحاطة قدرته وعلمه، وكان ذلك هو روح الملك، دل عليه منبهاً على عظمته بأداة التراخي فقال: {ثم استوى} أي أوجد السواء وهو العدل إيجاد من هو شديد العناية {على العرش} المحيط بجميع الموجودات بالتدبير المحكم للعرش وما دونه ومن دونه ليتصـور للعباد أن العرش منشـأ التدبير، ومظهر التقدير، كما يقال في ملوكنا : جلس فلان على سـرير الملك، بمعنى أنه انفرد بالتدبير، وقد لا يكون هناك سرير فضلاً عن جلوس.

ولما كان المراد بالاستواء الانفراد بالتدبير، وكان التدبير لا يصح إلا بالعلم والقدرة، كشـفه بقوله دالاًّ على أن علمه بالخفايا كعلمه بالجلايا : {يعلم ما يلج} أي يدخل دخولاً يغيب به {في الأرض} أي من النبات وغيره من أجزاء الأموات وغيرها وإن كان ذلك بعيداً من العرش، فإن الأماكن كلها بالنسـبة إليه على حد سـواء في القرب والبعد {وما يخرج منها} كذلك، وفي التعبير بالمضـارع دلالة على ما أودع في الخافقين من القوى فصـار بحيث يتجدد منهما ذلك بخلقه تجدد استمرار إلى حين خرابهما.

ولما قرر ذلك فيما قد يتوهم بعده لبعده عن العرش بسفوله تنبيهاً على التنزه عن التحيز فكان أولى بالتقديم، أتبعه قسـيمه وهو جهة العلو تعميماً للعمل بسائر الخلق فقال: {وما ينزل من السماء} ولم يجمع لأن المقصود حاصل بالواحدة مع إفهام التعبير بها الجنس السـافل للكل، وذلك من الوحي

والأمطار والحر والبرد وغيرهما من الأعيان والمنافع التي يوجدها سـبحانه من مقادير أعمار بني آدم وأرزاقهم وغيرها من جميع شـؤونهم {وما يعرج} أي يصـعد ويرتقي ويغيب {فيها} كالأبخرة والأنوار والكواكب والأعمال وغيرها.

ولما كان من يتسـع ملكه يغيب عنه علم بعضـه لبعده عنه، عرف أنه لا مسافة أصلاً بينه وبين شيء من الأشياء فقال: {وهو معكم} أي أيها الثقلان المحتاجان إلى التهذيب بالعلم والقدرة المسـببين عن القرب {أين ما كنتم} فهو عالم بجميع أموركم وقادر عليكم تعالياً عن اتصـال بالعلم ومماسـة، أو انفصـال عنه بغيبة أو مسـافة، قال أبو العباس ابن تيمية في كتابه الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشـيطان: لفظ «مع» لا يقتضـي في لغة العرب أن يكون أحد الشيئين مختلطاً بالآخر لقوله

{اتقوا الله وكونوا مع الصـادقين} [التوبة: 119] وقوله: {محمد رسـول الله والذين معه أشداء على الكفار} ولفظ «مع» جاءت في القرآن عامة وخاصة، فالعامة {ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم} [المجادلة: 7] فافتتح الكلام بالعلم واختتمه بالعلم، ولهذا قال ابن عباس رضـي الله عنهما والضـحاك وسـفيان الثوري وأحمد بن حنبل: هو معهم بعلمه، وأما المعية الخاصـة فقوله تعالى: {إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسـنون} [النحل: 128] وقوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: {إنني معكما أسمع وأرى} [طه: 46] وقال: {إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا} [التوبة: 40] يعني النبي صلى الله

عليه وسلم وأبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، فهو مع موسى وهارون عليهما السلام دون فرعون، ومع محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه رضي الله عنه دون أبي جهل وغيره من أعدائه، ومع الذين اتقوا والذين هم محسنون دون الظالمين المعتدين، فلو كان معنى المعية أنه بذاته في كل مكان تناقض الخبر الخاص والخبر العام، بل المعنى أنه مع هؤلاء بنصره وتأييده دون أولئك، وقوله تعالى: {وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله} [الزخرف: 84] أي هو إله في السماء وإله في الأرض كما قال تعالى: {وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} [الروم: 27] وكذلك في قوله تعالى: {وهو الله في السماوات وفي الأرض} كما فسره أئمة العلم كأحمد وغيره أنه المعبود في السماوات والأرض.

ولما كانت الأعمال منها ظاهر وباطن، عبر في أمرها باسم الذات دلالة على شمولها بالعلم والقدر وتنبيهاً على عظمة الإحاطة بها وبكل صفة من صفاته فقال: {والله} أي المحيط بجميع صفات الكمال، وقدم الجارّ لمزيد الاهتمام والتنبيه على تحقق الإخاطة كما مضى التنبيه عليه غير مرة وتمثيله بنحو: أعرف فلاناً ولا أعرف غيره؛ فقال: {بما تعملون} أي على سبيل التجدد والاستمرار {بصير *} أي عالم بجلائله ودقائقه.

▲ تفسير الآيات رقم [5- 7]

{لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (5)

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (6)

آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (7)}

ولما كان صانع الشيء قد لا يكون ملكاً، وكان الملك لا يكمل ملكه إلا بعلم جميع ما يكون في مملكته والقدرة عليه، وكان إنكارهم للبعث إنكاراً لأن يكون ملكاً، أكد ذلك بتكرير الإخبار به فقال: {له} أي وحده {ملك السماوات} وجمع لاقتضـــاء المقام له {والأرض} أفرد لخفاء تعددها عليهم مع إرادة الجنس، ودل على دوام ملكه وإحاطته بقوله عاطفاً على ما تقديره: فمن الله المبدأ، معبراً بالاسـم الأعظم الجامع لئلا يظن الخصـوص بأمور ما تقدم: {وإلى الله} أي الملك الذي لا كفؤ له وحده {ترجع} بكل اعتبار على غاية السـهولة {الأمور *} أي كلها حسـاً بالبعث ومعنى بالإبداء والإفناء، ودل على هذا الإبداء والإفناء بأبدع الأمور وأروقها فقال: {يولج} أي يدخل ويغيب بالنقص والمحو {الّيل في النهار} فإذا قد قصـــر بعد طوله، وقد انمحى بعد تشخصه وحلوله، فملأ الضياء الأقطار بعد ذلك الظلام {ويولج النهار} الذي عم الكون ضياؤه وأناره لألاؤه {في الّيل} الذي قد كان غاب في علمه، فإذا الظالم قد طبق الآفاق، والطول، الذي كان له قد صار نقصاً.

ولما كان في هذا إظهار أخفى الأشياء حتى يصير في غاية الجلاء، أتبعه علم ما هو عند الناس أخفاء ما يكون فقال: {وهو} أي وحده {عليم} أي بالغ العلم {بذات الصـدور *} أي ما يصـحبها فتخفيه فلا يخرج منها الهمزات على مدى الأيام على كثرة اختلافها وتغيرها وإن خفيت على أصحابها.

ولما قامت الأدلة على تنزيهه سـبحانه عن شـائبة كل نقص، وإحاطته بكل صـــفة كمال، المقتضـــي لثبوت أن الملك له، الموجب قطعاً لتفرده بعموم الإلهية، المقتضـــي لإرســـال من يريده إلى جميع من في ملكه، وختم بالعلم بالضمائر التي أجلها الإيمان، قال آمراً بالإذعان له ولرسوله صلى الله عليه وســـلم: {آمنوا} أي أيها الثقلان {بالله} أي الملك الأعظم الذي لا مثل له {ورسوله} الذي عظمته من عظمته. ولما كان الإيمان أساساً، والإنفاق وجهاً ظاهراً ورأسـاً، قال جامعاً بين الأسـاس الحامل الخفي والوجه الظاهر الكامل البهي: {وأنفقوا} أي في إظهار دينه: ورغبهم في ذلك بطلب اليســير مما أعطاهم الله وزهدهم منه بقوله: {مما جعلكم} أي بقدرته {مســتخلفين} أي مطلوباً موجوداً خلافتكم {فيه} وهو له دونكم بما يرضــي من اســتخلفكم في تمهيد سـبيله فطيبوا بها نفسـاً لأنها ليسـت في الحقيقة لكم وإنما أنتم خزان، وخافوا من عزلكم من الخلافة بانتزاعها من أيديكم بتولية غيركم أمرها، إما في حياتكم، وإما بعد مماتكم، كما فعل بغيركم حين أوصـل إليكم ما وصـل من أموالهم، «فليس لكم منها إلا ما أكلتم فأفنيتم أو لبستم فأبليتم أو تصدقتم فأبقيتم- وفي رواية: فأمضيتم«

وليهن الإنفاق منها عليكم كما يهون على الإنســـان النفقة من مال غيره إذا كان أذن له فيه.

ولما أمر بالإنفاق ووصــفه بما سـهله، سـبب عنه ما يرغب فيه فقال مبالغاً في تأكيد الوعد لما في ارتكابه من العســـر بالتعبير عنه بالجملة الاســـمية وبناء الحكم على الضمير بالوصف بالكبير وغير ذلك: {فالذين آمنوا} وبين

أن هذا خاص بهم لضـــيق الحال في زمانهم فقال: {منكم وأنفقوا} أي من أموالهم في الوجوه التي ندب إليها على وجه الإصــلاح كما دل عليه التعبير بالإنفاق {لهم أجر كبير *} أي لا تبلغ عقولكم حقيقة كبره فاغتنموا الإنفاق في أيام استخلافكم قبل عزلكم وإتلافكم.

▲ تفسير الآيات رقم [8- 10]

{وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (8)

هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (9)

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْـتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (10)}

ولما رغب في الإنفاق والإيمان، وكان الإيمان مقتضى بالإنفاق، عجب ممن لا يبادر إلى الحاصــل على كل خير، فقال مفصــلاً لما أجمل من الترغيب فيهما، بادئاً بأبين كل خير، منفســاً عنهم بالتعبير بأداة الاســتقبال بالبشــارة بالعفو عن الماضــي مرهباً موبخاً لمن لا يبادر إلى مضـمون ما دخل عليه الاســتفهام، عاطفاً على ما تقديره: فما لكم لا تبادرون إلى ذلك: {وما} أي وأيّ شـيء {لكم} من الأعذار أو غيرها في أنكم، أو حال كونكم {لا تؤمنون بالله} أي تجددون الإيمان- أي تجديداً مسـتمراً- بالملك الأعلى أي الذي له الملك كله ولأمر كله بعد ســـماعكم لهذا الكلام: لأن «لا» لا تدخل على

مضـــارع إلا وهو بمعنى الاســـتقبال، ولو عبر بعبارة تدل على الحال لربما تعنت متعنت فقال : فأت ما طلب منا، والذي بعد هذا من الحال التي هي في معنى دالة على هذا، وهي قوله : {والرســـول} أي والحال أن الذي له الرسـالة العامة {يدعوكم} صـباحاً ومسـاء على ما له من مقتضـيات القبول منه من حسن السمت وجلالة القدر وإظهار الخوارق وغير ذلك {لتؤمنوا} أي لأجل أن تجددوا الإيمان {بربكم} أي الذي أحسن تربيتكم بأن جعلكم من أمة هذه النبي الكريم صـلى الله عليه وسـلم وشـرفكم به {وقد} أي والحال أنه قد {أخذ ميثاقكم} أي وقع أخذه فصــــار في غاية القباحة ترك ما وقع التوثق بسـببه بنصـب الأدلة والتمكين من النظر بإبداع العقول، وذلك كله منضـم إلى أخذ الذرية من ظهر آدم عليه الصـلاة والسـلام وإشـهادهم على أنفسـهم وإشـــهاد الملائكة عليهم، وبنى الفعل للمفعول في قراءة أبي عمرو ليكون المعنى أيّ أخذ كان لأن الغدر عند الكرماء شــديد من غير نظر إلى معين لا ســيما العرب فكيف إذا كان الآخذ الملك الأعظم القادر على كل شـــيء العالم بكل شـيء، ورسـوله الذي تعظيمه من تعظيمه، كا صـرحت به قراءة الجماعة بالبناء للفاعل ولا يخفى الإعراب، والحاصـل أنهم نقضـوا الميثاق في الإيمان، فلم يؤاخذهم حتى أرسل الرسل.

ولما حثهم على تجديد الإيمان على سبيل الاستمرار بالتعجب من ترك ذلك، وكان كل واحد يدعي العراقة في الخير، هيجهم وألهبهم بقوله: {إن كنتم} أي جبلة ووصـفاً ثابتاً {مؤمنين *} أي عريقين في وصـف الإيمان، وهو الكون على نور الفطرة الأولى.

ولما وصفه بالربوبية، دل عليها بقوله: {هو} أي وحده لا غيره {الذي ينزل} أي على سبيل التدريج والموالاة بحسب الحاجة. ولما كان الخطاب في هذه السورة للمخلص، قال مضيفاً إلى ضميره غير مقرون بما يدل على الجلال والكبرياء {على عبده} أي الذي هو أحق الناس بحضـرة جماله وإكرامه لأنه ما تعبد لغيره قط {آيات} أي علامات هي من ظهورها حقيقة بتأن يرجع إليها ويتقيد بها {بينت} جداً على ما له من النعوت التي هي في غاية الوضـــوح {ليخرجكم} أي الله أي عبده بما أنزل إليه مع أنه بشـــر مثلكم، والجنس إلى جنسه أميل ومنه أقبل، ولا سيما إن كان قريباً ولبيباً أريباً {من الظلمات} التي أنتم منغمســون فيها من الحظوظ والنقائص التي جبل عليها الإنسان والغفلة والنسيان، الحاملة على تراكم الجهل، فمن آتاه سبحانه العلم والإيمان فقد أخرجه نم هذه الظلمات التي طرأت عليه {إلى النور} الذي كان وصفاً لروحه وفطرته الأولى السليمة.

ولما كان التقدير : فإن الله به للطيف خبير، عطف عليه قوله مؤكداً لأجل زلزال من يطول به البلاء من المؤمنين وإنكار الكفار: {وإن الله} أي الذي له صـــفات الكمال {بكم} قدم الجارّ لأن عظيم رحمته لهذه الأمة موجب لعد نعمته على غيرنا عدماً بالنسـبة إلى نعمته علينا {لرؤوف رحيم *} أي كنتم بالنظر إلى رحمته الخاصـة التي هي لإتمام النعمة صـنفين: منكم من كان له به وصــــلة بما يفعل في أيام جاهليته من الخيرات كالإنفاق في ســـبيل المعروف، وعبر بالإنفاق لكونه خيراً لا رياء ونحوه فيه كالصديق رضي الله عنه فعاد عليه، بعد عموم رحمته بالبيان، بخصوص رحمة عظيمة أوصلته

إلى أعظم درجات العرفان، ومنكم من كان بالغاً في اتباع الهوى فابتدأه بعد عموم رحمة البيان بخصـوص رحمة هداه بها إلى أعمال الجنان، وهي دون ما قبلها في الميزان، وفوقها من حيث إنها بدون سبب من المرحوم.

ولما أمرهم بالإيمان والإنفاق، وكان الإيمان مع كونه الأساس الذي لا يصح عمل بدونه ليس فيه شـيء من خسـران أو نقصـان، فبدأ به لذلك، ورغب بختم الآية بالإشـارة بالرأفة إلى أن من توصـل إليه بشـيء من الإيمان أو غيره زاده من فضله «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً– إلى قوله: ومن أتاني يمشـي أتيته هرولة» عطف عليه الترغيب في التوصـل إليه بالإنفاق منكراً على من تركه موبخاً لمن حاد عنه هو يعلم أنه فان، مفهماً بزيادة «أن» المصـدرية اللوم على تركه في جميع الأزمنة الثلاثة فقال: {وما} أي وأيّ شيء يحصل {لكم} في {ألا تنفقوا} أي توجدوا الإخراج للمال {في سبيل الله} أي في كل ما يرضـي الملك الأعظم الذي له صفات الكمال لتكون لكم به وصلة فيخصكم بالرأفة التي هي أعظم الرحمة، فإنه أم بخل به أحد عن وجه خير إلا سلط الله عليه غرامة في وجه شر، وأظهر موضـع الإضمار في جملة حالية باعثاً على الإنفاق بأبلغ بعث فقال: {ولله} تأكيداً للعظمة بالندب إلى ذلك باسـتحضـار جميع صـفات الكمال لا سـيما صـفة الإرث المقتضـية للزهد في الموروث {ميراث} أي الإرث والموروث والموروث عنه وغير ذلك {السماوات والأرض} جميعاً لا شيء فيهما أو منهما إلا هو كذلك يزول عن المنتفع به ويبقى لله بقاء الإرث، ومن تأمل أنه زائل هو وكل ما

في يده والموت من ورائه، ويد طوارق الحوادث مطبقة به، وعما قليل ينقل ما في يده إلى غيره هان عليه الجود بنفسه وماله.

ولما رغبهم في الإنفاق على الإطلاق، رغبهم في المبادرة إليه، مادحاً أهله خاصاً منهم أهل السياق فقال: {لا يستوي}. ولما كان المراد أهل الإسلام بين بقوله: {منكم من أنفق} أي أوجد الإنفاق في ماله وجميع قواه وما يقدر عليه. ولما كان المقصود الإنفاق في زمان الإيمان لا مطلق الزمان، خص بالجارّ فقال: {من قبل الفتح} أي الذي هو فتح جميع الدنيا في الحقيقة وهو فتح مكة الذي كان سبباً لظهور الدين على الدين كله لما نال المنفق إذ ذاك بالإنفاق من كثرة المشاق لضيق المال حينئذ، وذلك مستلزم لكون المنفق أنفذ بصيرة ونفقته أعظم غنّى وأشد نفعاً، وفيه دليل على فضل أبي بكر رضي الله عنه فإنه أول من أنفق ولم يسبقه في ذلك أحد، وفيه نزلت الآية- كما حكاه البغوي عن الكلبي.

ولما كان المراد بالإيمان خدمة الرحمة، وكان الإنفاق وإن كان مصدقاً للإيمان لا يكمل تصديقه إلا ببذل النفس قال: {وقاتل} أي سعياً في إنفاق نفسه لمن آمن به، وحذف المنفي للتسوية به وهو من لم ينفق مطلقاً أو بقيد القبلية لدلالة ما بعده، ولعله أفرد الضمير إشارة إلى قلة السابقين.

ولما كان نفي المساواة لا يعرف منها الفاضل من غيره، وقد كان حذف قسيم من أنفق لوضوحه والتنفير منه ودلالة ما بعده عليه، نفى اللبس بقوله: {أولئك} أي المنفقون المقاتلون وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، المقربون من أهل الرتبة العية لمبادرتهم إلى الجود بالنفس والمال

{أعظم درجة} وبعظم الدرجة يكون عظم صـــاحبها {من الذين أنفقوا} ولما كان المراد التفضـــيل على أوجد الإنفاق والقتال في زمان بعد ذلك، لا على من اســـتغرق كل زمان بعده بالإنفاق والقتال أدخل الجار فقال : {من بعد وقاتلوا} ولما كان التفضيل مفهماً اشتراك الكل في الفضل، صرح به ترغيباً في الإنفاق على كل حال فقال: {وكلاًّ} أي من القسمين {وعد الله} أي الذي له الجلال والكمال والإكرام {الحسنى} أي الدرجة التي هي غاية الحسن وإن كانت في نفسها متفاوتة، وقرأ ابن عامر {وكل} وهو أوفق لما عطف عليه. ولما كان زكاء الأعمال إنما هو بالنيات، وكان التفضـــيل مناط العلم، قال مرغباً في إحســـان النيات مرهباً من التقصـــير فيها : {والله} أي الذي له الإحاطة الشـــاملة بجميع صـــفات الكمال، وقدم الجار إعلاماً بمزيد اعتناء بالتمييز عند التفضـــيل فقال : {بما تعملون} أي تجددون عمله على مر الأوقات {خبير *} أي عالم بباطنه وظاهره علماً لا مزيد عليه بوجه، فهو يجعل جزاء الأعمال على قدر النيات التي هي أرواح صورها.

▲ تفسير الآيات رقم [11- 12]

{مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (11) يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12)}

ولما فضـل السـابقين بالإنفاق، ووعد بالحسـنى اللاحقين بحسـن الاتباع، وأشار إلى أنه ربما ألحقهم ببعضهم بصفاء الإخلاص فتوفرت الدواعي على البذل، أثمر ذلك قوله مسيماً الصدقة التي صـورتها صـورة إخراج من غير

عوض باسـم القرض الذي هو إخراج بعوض ترغيباً فيها لما أعد عليها من الجزاء المحقق فكيف إذا كان مضاعفاً: {من} وأكد بالإشارة بقوله: {ذا} لأجل ما للنفوس من الشح {الذي يقرض الله} أي يعطي الذي له جميع صفات الجلال والإكرام بإعطاء المستحق لأجله عطاء من ماله هو على صورة القرض لرجائه الثواب {قرضاً حسناً} أي طيباً خالصاً فيه متحرياً به أفضل الوجوه طيبة به النفس من غير من ولا كدر بتسويف ونحوه.

ولما كان ما يعطي الله المنفق من الجزاء مسبباً عن إنفاقه، ربطه بالفاء فقال عطفاً على {يقرض}: {فيضاعفه له} مرغباً فيه بجعله مبالغاً بالتضعيف أولاً وجعله من باب المفاعلة ثانياً، وكذا التفضيل في قراءة ابن كثير وابن عامر ويعقوب {فيضعفه} وقرأه ابن عامر ويعقوب بالنصب جواباً للاستفهام تأكيداً للربط والتسبيب. ولما كانت المضاعفة منه سبحانه لا يعلم كنهها إلى هو قال: {وله} أي المقرض من بعد ما تعقلونه من المضاعفة زيادة على ذلك {أجر} لا يعلم قدره إلى الله، وهو معنى وصفه بقوله: {كريم *} أي حسن طيب زاك نام.

ولما بين ما لهذا المقرض، بين بعض وصفه بالكرم ببيان وقته فقال: {يوم} أي لهم ذلك في الوقت الذي {ترى} فيه بالعين، وأشار إلى أن المحبوب من المال لا يخرج عنه ولا سيما مع الإقتار إلا من وقر الدين في قلبه بتعبيره بالوصف فقال: {المؤمنين والمؤمنات} أي الذي صار الإيمان لهم صفة راسخة {يسعى} شعاراً لهم وأمارة على سعادتهم {نورهم} الذي يوجب إبصارهم لجميع ما ينفعهم فيأخذوه وما يضرهم فيتركوه، وذلك بقدر أعمالهم

الصـــــالحة التي كانوا يعملونها بنور العلم الذي هو ثمرة الإيمان كما أنهم قدموا المال الذي إنما يقتنيه الإنسان لمثل ذلك جزاء وفاقاً.

ولما كان من يراد تعظيمه يعطى ما يجب وما بعده شـريفاً (؟) في الأماكن التي يحبها قال: {بين أيديهم} أي حيث ما توجهوا، ولذلك حذف الجار {وبأيمانهم} أي وتلتصـــق بتلك الجهة لأن هاتين الجهتين أشـرف جهاتهم، وهم إما من الســابقين، وإما من أهل اليمين، ويعطون صــحائفهم من هاتين الجهتين، والشقي بخلاف ذلك لا نور له ويعطى صحيفته بشماله ومن وراء ظهره، فالأول نور الإيمان والمعرفة والأعمال المقولة، والثاني نور الإنفاق لأنه بالإيمان– نبه– عليه الرازي.

ولما ذكر نفوذهم فيما يحبون من الجهات وتيســـيره لهم، أتبعه ما يقال لهم من المحبوب في سلوكهم لذلك المحبوب فقال: {بشـراكم اليوم} أي بشـارتكم العظيمة في جميع ما يستقبلكم من الزمان.

ولما تشـوفوا لذلك أخبروا بالمبشـر به بقوله مخبراً إشـارة إلى أن المخبر به يحسد من البشرى لكونه معدن السرور {جنات} أي كائنة لكم تتصرفون فيها أعظم تصـــرف، والخبر في الأصـــل دخول، ولكنه عدل عنه لما ذكر من المبالغة ثم وصــــفها بما لا تكمل اللذة إلا به فقال؛ {تجري} وأفهم القرب بإثبات الجارّ فقال: {من تحتها الأنهار} ولما كان ذلك لا يتم مع خوف الانقطاع قال: {خالدين فيها} خلوداً لا آخر له لأن الله أورثكم ذلك ما لا يورث عنكم كما كان حكام الدنيا لأن الجنة لا موت فيها. ولما كان هذا أمراً ساراً في ذلك المقام الضنك محباً بأمر استأنف مدحه بقوله: {ذلك} أي هذا

الأمر العظيم جداً {هو} أي وحده {الفوز العظيم *} أي الذي ملأ بعظمته جميع الجهات من ذواتكم وأبدانكم ونفوسكم وأرواحكم.

▲ تفسير الآيات رقم [13- 15]

{يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آَمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (13)

يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14)

فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (15)}

ولما عظم هذا الأجر الكريم ببيان ما لأهله في الوقت الكائن فيه، عظمه بما لأضدادهم من النكال، فقال مبدلاً من الظرف الأول: {يوم يقول} أي قولاً مجدداً يلجئ إليه من الأمور العظيمة الشاقة {المنافقون والمنافقات} أي بالعراقة في إظهار الإيمان وإبطان الكفران {للذين آمنوا} أي ظاهراً وباطناً، وأما من علا من هذا السن من المؤمنين ومن فوقهم فالظاهر أنهم لا يرونهم ليطمعوا في مناداتهم «وأين الثريا من يد المتناول» {انظرونا} أي انظرونا بأن تمكثوا في مكانكم لنلحق بكم، وكأن الفعل جرد في قراءة الجماعة لاقتضاء الحال الإيجاز بغاية ما توصل المقدرة إليه خوف الفوت، لأن المسؤولين يسرعون إلى الجنة كالبرق الخاطف، وقد حققت المعنى قراءة حمزة بقطع الهمزة وكسر الظاء أي أخرونا في المشي وتأنوا علينا وأمهلوا

علينا، لا تطلبوا منا السـرعة فيه بل امكثوا في مكانكم لننظر في أمرنا كيف نلحق بكم، والحاصـل أنهم عدوا تأنيهم في المشـي وتلبثهم ليلحقوا بهم إنظاراً لهم {نقتبس} أي نأخذ ونصيب ونستصبح {من نوركم} أي هذا الذي نراه لكم ولا يلحقنا منه بشـــيء كما كنا في الدنيا نرى إيمانكم بما نرى من ظواهركم ولا نتعلق من ذلك بشـــيء جزاء وفاقاً، وســـبب هذا القول أنهم يعطون مع المؤمنين نوراً خديعة لهم بما خادعوا في الدنيا لتعظم عليهم المشـــقة بفقده لأنـه لا يلبث أن يبعث الله عليهم ريحـاً وظلمـة فتطفئ نورهم ويبقون في الظلمة، وإلى ذلك ينظر قول المؤمنين {أتمم لنا نورنا } أي لا تطفئه كما أطفأت نور المنافقين.

ولما كان المنكئ لهم إنما هو الرد من أي قائل كان، بنى للمفعول قولـه: {قيل} أي لهم جواباً لسـؤالهم قول رد وتوبيخ وتهكم وتنديم: {ارجعوا وراءكم} أي في جميع جهات الوراء التي هي أبعد الجهات عن الخير كما كنتم في الدنيا لا تزالون مرتدين على أعقابكم عما يستحق أن يقبل عليه ويسعى إليه {فالتمسـوا} بسـبب ذلك الرجوع {نوراً} ويصـح أن يراد بالوراء الدنيا لأن هذا النور إنما هو منها بســـبب ما عملوا فيها من الأعمال الزاكية والمعارف الصـــافية، ولهذا قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في كتاب المحبة من الإحياء: إن هذه الآية تدل على أن الأنوار لا بد أن يتجدد أصـلها في الدنيا ثم يزداد في الآخرة إشراقاً فأمّا أن يتجدد ثَمَّ نور فلا.

ولما كان التقدير : فرجعوا أو فأقاموا في الظلمة، ســـبب عنه وعقب قولـه: {فضـرب} مبنياً للمفعول على نحو الأول، ولإفادة أن الضـرب كان في غاية

السرعة والسهولة، ويجوز أن تكون الفاء معقبة على ما قبله من غير تقدير {بينهم} أي في جميع المسافة التي بين الذين آمنوا وأضدادهم في وقت قولهم هذا.

ولما كان المقصود أن ضربه كان في غاية السرعة، لم يوقع الفعل وأتى بالفاء ليفيد أنه كان كأنه عصاً ضربت به الأرض ضربه واحدة، فقال: {بسور} أي جدار محيط محيل بين الجنة والنار لا يشذ عنه أحد منهم ولا يقدر أحد ممن سواهم أن يتجاوزه إليهم {له باب} موكل به حجاب لا يفتحون إلا لمن أذن الله له من المؤمنين بما يهديهم إليه من نورهم الذي بين أيديهم لشفاعة أو نحوها {باطنه} أي ذلك السور الباب وهو الذي من جهة الذين آمنوا جزاء لإيمانهم الذي هو غيب {فيه الرحمة} وهي ما لهم من الكرامة بالجنة التي هي ساترة ببطن من فيها بأشجارها وبأسبابها كما كانت بواطنهم ملاء رحمة {وظاهره} أي السور أو الباب الذي يظهر لأهل النار، مبتدئ {من قبله} أي تجاه ذلك الظاهر وناحيته وجهته وعنده {العذاب *} من النار ومقدماتها لاقتصار أهله على الظواهر من غير أن يكون لهم نفوذ إلى باطن وعكس ما أرادوا من حفظ ظواهرهم في الدنيا مع فساد بواطنهم، ودل على ما أفهمه التعبير بالمضارع في «يقول» من التكرير بقوله استئنافاً: {ينادونهم} أي المنافقون والمنافقات، يواصلون النداء وهم في الظلمة للذين آمنوا يترفقون لهم في مدة هذا القول والضرب: {ألم نكن} أي بكليتنا {معكم} أي فيما كنتم فيه من الدين فنستحق المشاركة فيما صرتم إليه بسبب ذلك الدين الذين كنا معكم فيه {قالوا} أي الذين آمنوا {بلى} قد كنتم معنا {ولكنكم

فتنتم} أي كنتم بما كان لكم من الذبذبة تختبرون {أنفســـكم} فتخالطونها باختبار أحوال الدين مخالطة محيلة لها مميلة عما كانت عليه من أصـــل الفطرة من الاســـتقامة، تريدون بذلك أن تظهر لكم فيه أمور محســـوســـة لتخلصــوا فيه من الشــكوك فتخلصــوا، فما آمنتم بالغيب فأهلكتموها وتبعتم أيضـــاً الأمور التي كنتم تفتتون بها من الشـــهوات، فأوجبتهم لكم الإعراض عن المعالي الباطنات {وتربصـــتم} أي كلفتم أنفســـكم أن أخرجتموها عن الفطرة الأولى فأمهلتم وانتظرتم لتروا الأمر عياناً أو لم تفعلوا كما فعلنا من الإيمان بالغيب وترك التجربة ونسبة ما يحصـل لنا مما فيه فتنة إلى أنفسـنا بتقصـيرنا، وكنا كلما حصـل لنا ما يزلزل نقول: هذا ما وعدنا الله ورسـوله وصـدق الله ورسـوله ولا يزيدنا ذلك إلاّ إيماناً وتسـليماً وانتظرتم أيضـاً الدوائر بأهل الإيمان لتظهروا النفاق {وارتبتم} أي شككتم بتكليف أنفسكم الشك بذلك التربص {وغرتكم الأماني} أي ما تتمنون أي تريدون وتقدرون من الإرادات التي معها شـهوة عظيمة من الأطماع الفارغة التي لا سـبب لها غير شـهوة النفس إياها بما كنتم تتوقعون لنا من دوائر الســوء {حتى جاء أمر الله} أي قضاء الملك المتصف بجميع صفات الكمال فلا كفوء له ولا خلف لقوله من الموت ومقدمات من الأمور الدهشـة، فكما كنتم في الدنيا مقصـرين كنتم في هذا الموطن {وغركم بالله} أي الملك الذي له جميع العظمة، فهو بحيث لا يخلف الميعاد وهو الولي الودود {الغرور} أي من لا صـــنع له إلا الكذب وهو الشيطان وهو العدو الحسود، فإنه ينوع لكم بغروره التسويف ويقول: إن الله غفور رحيم وعفو كريم، وماذا عســـى أن تكون ذنوبكم عنه وهو عظيم

ومحســن وحليم ونحو هذا، فلا يزال حتى يوقع الإنســان، فإذا أوقع واصــل عليه مثل ذلك حتى يتمادى، فإذا تمادى صـــــار الباعث له حينئذ من قبل نفسه فصار طوع يده.

ولما أقروا لهم بالكون الجامع، وذكروا ما حصــل به والفرق المانع فظهر أن لا كون، ســببوا عنه قولهم: {فاليوم} أي بســبب أفعالكم تلك {لا يؤخذ} بناء للمفعول لأن الضار عدم الأخذ لا كونه من آخذ معين وليفيد سد باب الأخذ مطلقاً {منكم فدية} أي نوع من أنواع الفداء وهو البدل والعضــو للنفس على أي حال من قلة أو كثرة أو حســـن أو غيره لأن الإله غني وقد فات محل العمل الذي شرعه لإنقاذ أنفسكم. ولما كانوا مكذبين أكد فقال: {ولا من الذين كفروا} أي أظهروا كفرهم ولم يســتروه كما ســترتموه أنتم لمســاواتكم لهم في الكفر. ولما كان كأنه قيل: فأين نكون؟ قال: {مأواكم} أي منزلكم ومسـكنكم ومجمعكم {النار} لا مقر لكم غيرها، تحرقكم كما كنتم تحرقون قلوب الأولياء بإقبالكم على الشــهوات، وإضــاعتكم حقوق ذوي الحاجات، وأكد ذلك بقوله: {هي} أي لا غيرها {مولاكم} أي قرينتكم وموضــع قربكم ومصــيركم وناصــركم على نحو «تحيـة بينهم ضـــرب وجيع» فهي أولى لكم، لا قرب لكم إلى غيرها، ولا غيرها مولى ولا مصـير إلى سـواها ولا ناصـر إلا هي. ولما كان التقدير: فبئس المولى هي، عطف عليه قوله: {وبئس المصــير *} أي هذه النار التي صرتم إليها.

▲ تفسير الآيات رقم [16– 17]

{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (16) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (17)}

ولما كان هذا وعظاً شافياً لسقام القلوب، وكاشفاً لغطاء الكروب، انتج قوله حاثاً على الإقبال على كتابه الذي رحم به عباده بإنزاله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم على وجه معلم بإعجازه أنه كلام مستعطفاً لهم إلى جنابه زاجراً لهم عما سألهم بعضهم فيه سلمان رضي الله عنه من أن يحدثهم عن التوراة والإنجيل، فكانوا كلما سألوه عن شيء أنزل سبحانه آية يزجرهم بها وينبههم على أن هذا القرآن فيه كل ما يطلب إلى أن أنزل هذه الآية زاجرة هذا الزجر العظيم لئلا يظن ظان أن القرآن غير كاف، مخوفاً لهم بما وقع لأهل الكتاب من الإعراض عن كتابهم، قال الكلبي نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إن الله استبطأ قلوب المؤمنين على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن، فقال: {ألم يأن} أي يحن وينتهي ويدرك إلى غاية {للذين آمنوا} أي أقروا بالإيمان بألسنتهم صدقاً أو كذباً {أن تخشع} أي أن يكون لهم رتبة عالية في الإيمان بأن تلين وتسكن وتخضع وتذل وتطمئن فتخبت فتعرض عن الفاني وتقبل على الباقي {قلوبهم لذكر الله} أي الملك الأعظم الذي لا خير إلا منه فيصدق في إيمانه من كان كاذباً ويقوى في الدين من كان ضعيفاً، فلا

يطلب لذلك دينه دواء ولا لمرض قلبه شــــفاء في غير القرآن، فإن ذكر الله يجلو أصداء القلوب ويصقل مرائيها.

ولما كان الذكر وحده كافياً في الخشــوع والإنابة والخضــوع لأنه مجمع لكل رغبة ومنبع لكل رهبة، وكان من الناس من لا نفوذ له فيما له ســبحانه من الجلال والإكرام قال: {وما نزل} أي الله تعالى بالتدريج– على قراءة الجماعة بالتشديد، وما وجد إنزاله من عند الله على خاتم رسله صلى الله عليه وسلم على قراءة نافع وحفص عن عاصـــم ورويس بخلف عنه عن يعقوب بالتخفيف {من الحق} أي من الوعد والوعيد والوعظ وغير ذلك على نبيكم صلى الله عليه وسلم من القرآن إشارة إلى أن غير هذا الذكر دخله الدخيل، وأما هذا فثابت ثباتاً لا يقدر أحد على إزالته.

ولما كان للمسابقة والمنافسة أمر عظيم في تحريك الهمم لأهل الأنفة وأولي المعالي قال: {ولا يكونوا كالذين} ولما كان العلم بمجرده كافياً في إعلاء الهمة فكيف إذا كان من عند الله فكيف إذا كان بكتاب، إشـــارة إلى ذلك بالبناء للمجهول فقال: {أوتوا الكتاب} أي لو كان الإتيان من عند غير الله لكان جديراً بالهداية فكيف وهو من عنده. ولما كان إنزال الكتب لم يكن إلا على بني إسرائيل فلم يكن مستغرقاً للزمان الماضي أدخل الجارّ فقال: {من قبل} أي قبل ما نزل إليكم وهم اليهود والنصارى.

ولما كانوا في كل قليل يعبرون قال عاطفاً على {أوتوا الكتاب}: {فطال عليهم الأمد} أي الزمان الذي ضربناه لشرفهم ومددناه لعلوهم من أول إيتائهم الكتاب الذي من شـأنه ترقيق القلوب، والأمد الأجل، وكل منهما يطلق على

المدة كلها وعلى آخرها، وكذا الغاية بقول النحاة: «من» لابتداء الغاية و«إلى» لانتهائها، والمراد جميع المدة {فقسمت} أي بسبب الطول {قلوبهم} أي صلبت واعوجت حتى كانت بحيث لا تنفعل للطاعات والخير فكانوا كل قليل في تعنت شديد على أنبيائهم عليهم الصلاة والسلام يسألونهم المقترحات، وأما بعد ايتائهم فأبعدوا في القساوة، فمالوا إلى دار الكدر بكلياتهم وأعرضوا عن دار الصفاء فانجروا إلى الهلاك باتباع الشهوات، قال القشيري: وقسوة القلب إنما تحصل من اتباع الشهوة وإن الشهوة والصفوة لا تجتمعان.

ولما كان التقدير : فبعضهم ثبت على تزلزل، عطف عليه قوله: {وكثير منهم} أخرجته قساوته عن الدين أصلاً ورأساً فهم {فاسقون *} أي عريقون في وصف الإقدام على الخروج من دائرة الحق التي عداها لهم الكتاب، وعن عبد الله بن الزبير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لم يكن بين إسلامهم وبين أن نزلت هذه الآية يعاتبهم الله بها إلاّ أربع سنين» رواه الطبراني في الكبير، قال الهيثمي: وفيه موسى بن يعقوب الربعي وثقه ابن معين وغيره وضعفه ابن المديني وبقية رجاله رجال الصحيح. انتهى.

ولما كان الموجب الأعظم للقسوة إنكار البعث، وكان العرب يزيدون على أهل الكتاب من موجبات القسوة به، وكان عمل العامل بما يدل على القسوة عمل من ينكره، قال مهدداً به مقرراً لما ابتدأ به السورة من أمر الإحياء مشيراً إلى القدر على إحياء القلوب ممثلاً لإزالة القسمة عنها بصقل الذكر والتلاوة ترغيباً في إدامة ذلك: {اعلموا} أي يا من آمن بلسانه {أن الله} أي

الملك الأعظم الذي له الكمال كله فلا يعجزه شيء {يحيي} أي على سبيل التجديد والاستمرار كما تشاهدونه {الأرض} اليابسة بالنبات. ولما كان هذا الوصف ثابتاً دائماً بالفعل وبالقوة أخرى، وكان الجار هنا مقتضياً للتعميم قال: {بعد موتها} من غير ذكر الجارّ وكما أنه يحييها فيخرج بها النبات بعد أن كان قد تفتت وصار تراباً فكذلك يحيي بجمع أجسامهم وإفاضة الأرواح كما فعل بالنبات وكما فعل بالأجسام أول مرة سواء، لا فرق بوجه إلا بأن يقال: الابتداء أصعب في العادة، فاحذروا سطوته واخشوا غضبه وارجوا رحمته لإحياء القلوب، فإنه قادر على إحيائها بروح الوحي كما أحيا الأرض بروح الماء لتصير بإحيائها بالذكر خاشعة بعد قسوتها كما صارت الأرض بالماء رابية بعد خشوعها وموتها.

ولما انكشف الأمر بهذا غاية الانكشاف، أنتج قوله: {قد بينا} أي على ما لنا من العظمة، ولما كان العرب يفهمون من لسانهم ما لا يفهم غيرهم فكانوا يعرفون– من إعجاز القرآن بكثرة فوائده وجلالة مقاصده ودقة مسالكه وعظمة مداركه، وجزالة تراكيبه ومتانة أساليبه وغير ذلك من شؤونه وأنواعه وفنونه، المنتج لتحقق أنه كلام الله– ما لا يعلمه غيرهم فكأنما كانوا مخصوصين بهذا البيان، فقدم الجارّ فقال: {لكم الآيات} أي العلامات المنيرات. ولما كان السياق للبعث، وكان من دعائم أصول الدين، وكان العقل كافياً في قياسه على النبات، وكان الفعل الذي لا يعود إلى سعادة الآخرة ناقصاً «، وكان العقل الذي لا ينجي صاحبه مساوياً للعدم، قال معبراً بأداة التراخي بخلاف ما سبق في آل عمران فإنه من مصالح النفس

التي اختفت، ودواع تدعو إلى فهمها، وتبعث إلى إتقان علمها {لعلكم تعقلون * } أي لتكونوا عند من يعلم ذلك ويســـمعه من الخلائق على رجاء من حصـــول العقل لكم بما يتجدد لكم من فهمه على ســـبيل التواصـــل الدار بالاستمرار.

▲ تفسير الآيات رقم [18- 20]

{إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (18)

وَالَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (19)

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (20)}

ولما كانت الصدقة كالبذر الذي تقدم أن الله تعالى يحييه ويضاعفه أضعافاً كثيرة على حســـب زكاء الأرض، قال منتجاً مما مضـــى ما يعرف أن من أعظم ما دل على الخشوع المحثوث عليه والبعد عن حال الذين أوتوا الكتاب في القســـوة الصـــدقة بالإنفاق الذي قرنه في أولها بالإيمان، وحث عليه في كثير من آياتها تنبيهاً على أنه ثمرته التي لا تخلف عنه، معبراً عنه بما يرشـد إلى أنه المصـدق لدعواه، وأكده لمن يشـك في البعث من إنكار بركة الصـدقة عاجلاً أو آجلاً تقيداً بالمحسـوسـات: {إن المصـدقين} أي العريقين

في هذا الوصــف من الرجال {والمصــدقات} أي من النســاء بأموالهم على الضــعفاء الذين إعطاؤهم يدل على الصـــدق في الإيمان لكون المعطى لا يرجى منه نفع دنيوي، ولعله أدغم إشارة إلى إخفاء الإكثار من الصدقة حتى تصير ظاهرة، وقراءة ابن كثير وأبي بكر عن عاصم بالتخفيف تدل مع ذلك على التصديق بالإيمان، فكل من القراءات يدل عليهما، ومن التفصيل بذكر النوعين تعرف شدة الاعتناء.

ولما كانت صـــيغة التفعل تدل على التكلف حثاً على حمل النفس على التطبع بذلك حتى يصـــير لها خلقاً في غاية الخفة عليها فقال عاطفاً على صلة الموصول في اسم الفاعل معبراً بالماضي بعد إفهام الوصف الثبات دلالة على الإيقاع بالفعل عطفاً على ما تقديره موقعاً ضـــميراً المذكر على الصــنفين تغليباً الذين صــدقوا إيمانهم بالتصــدق: {وأقرضــوا الله} الذي له الكمال كله بتصديقهم سواء كانوا من الذكور أو الإناث، وإنفاقهم في كل ما ندب إلى الإنفاق فيه، وأكد ووصف بقوله: {قرضاً حسناً} أي بغاية ما يكون من طيب النفس وإخلاص النية في الصدقة والنفقة في سبيل الخير، وحسنه أن يصــرف بصــره إلى النظر إلى فعله والامتياز به وطلب العوض عليه، قال الرازي: {يضـــاعف} أي ذاك القرض {لهم} ويثابون بحســـب تلك المضاعفة لأن الذي كان القرض له سبحانه حليم كريم ولا يرضى في الخير إلا بالفضـل، وثقل في قراءة ابن كثير وابن عامر وأبي جعفر ويعقوب دلالة على المبالغة في التكثير، وعبر بالمفاعلة في قراءة الجماعة لإفهام أن تلك الكثرة مما لا بد من كونه، وأنه عمل فيه عمل من يباري آخر ويغالبه، وبنى

للمفعول دلالة على باهر العظمة اللازم عنه كونه بغاية السهولة {ولهم} أي مع المضاعفة {أجر كريم *} أي لا كدر فيه بانقطاع ولا قلة ولا زيادة بوجه من الوجوه أصلاً.

ولما بين سبحانه وتعالى أن الصدقة كالبذر الذي هو من أحسن الأرباح وأبهجها، بين الحامل عليها ترغيباً فيها، فقال عاطفاً بالواو، إشارة إلى التمكن في جميع هذه الصفات: {والذين آمنوا} اي أوجدوا هذه الحقيقة العظيمة في أنفسهم {بالله} أي الملك الأعلى الذي له الجلال والإكرام {ورسله} اي كلهم لما لهم من النسبة إليه، فمن كذب بشيء على أحد منهم أوعمل عمل المكذب له لم يكن مؤمناً به {أولئك} أي الذين لهم الرتب العالية والمقامات السامية {هم} أي خاصة لا غيرهم {الصديقون} أي الذين هم في غاية الصدق والتصديق لما يحق له أن يصدقه من سمعه، وقال القشيري: الصديق من استوى ظاهره وباطنه، ويقال: هو الذي يحمل الأمر على الأشق ولا ينزل إلى الرخص، ولا يحتاج للتأويلات، ولما كان الصديق لا يكون عريقاً في الصديقية إلا بالتأهيل لرتبة الشهادة قال تعالى: {والشهداء} معبراً بما مفرده شهيد عاطفاً بالواو إشارة إلى قوة التمكن في كل من الوصفين، قال القشيري: هم الذين يشهدون بقلوبهم بواطن الوصل ويعتكفون بأسرارهم في أوطان القربة، وزاد المر عظماً بقوله: {عند ربهم} أي الذي أحسن إليهم بالقربة بمثل تلك الرتبة العالية من الشهادة لله بكل ما أرسل به رسله، والأنبياء الماضين على أممهم والحضور في جميع الملاذ بالشهادة في سبيل الله، قال مجاهد: كل مؤمن صديق وشهيد– وتلا هذه

الآية {لهم} أي جميع من مضى من الموصوفين بالخير {أجرهم} أي الذي جعله ربهم لهم {ونورهم} أي الذي زادهموه من فضله برحمته، أولئك أصحاب النعيم المقيم.

ولما ذكر أهل السعادة جامعاً لأصنافهم، أتبعهم أهل الشقاوة لذلك قال: {والذين كفروا} أي ستروا ما دلت عليه أنوار عقولهم ومرائي فكرهم {وكذبوا بآياتنا} على ما لها من العظمة بنسبتها إلينا سواء كانوا في ذلك مساترين أو مجاهرين أو عمل العالم بها عمل المكذب {أولئك} أي المبعدون من الخير خاصة {أصحاب الجحيم *} أي النار التي هي غاية في توقدها، خالدون فيها من بين العصاة، وأما غيرهم فدخولهم لها إذا دخلوها ليس على وجه الصحبة الدالة على الملازمة، وأولئك هم الكاذبون الذي لا تقبل لهم شهادة عند ربهم، لهم عقابهم وعليهم ظلامهم، والآية من الاحتباك: ذكر الصديقية وما معها أولاً دليلاً على أضدادها ثانياً، والجحيم ثانياً دليلاً على النعيم أولاً، وسره أن الأول أعظم في الكرامة، والثاني أعظم في الإهانة.

ولما ذكر سبحانه حال الفريقين: الأشقياء والسعداء، فتقرر بذلك أمر الآخرة، فعلموا أنها الحيوان الذي لا انقضاء له من إكرام أو هوان، وكان الموجب للهوان فيها إنما هو الإقبال على الدنيا لحضورها ونسيان الآخرة لغيابها، قال منتجاً مما مضى مبيناً لحقيقة ما يرغب فيه المكلف المركب على الشهوة من العاجلة بما نزهه فيه مصدّراً له بما يوجب غاية اليقظة والحضور: {اعلموا} أي أيها العباد المبتلون، وأكد المعنى بزيادة {ما} لما للناس من الغفلة عنه فقال قاصراً قصر قلب: {إنما الحيوة الدنيا} أي

الحاضرة التي رغبت في الزهد فيها والخروج عنها بالصدقة والقرض الحسن {لعب} أي تعب لا ثمرة له فهو باطل كلعب الصبيان {ولهو} أي شيء يفرح الإنسان به فيلهيه ويشغله عما يعنيه ثم ينقضي كلهو الفتيان، ثم أتبع ذلك عظم ما يلهي في الدنيا فقال: {وزينة} أي شيء يبهج العين ويسر النفس كزينة النسوان، وأتبعها ثمرتها فقال: {وتفاخر} أي كتفاخر الأقران يفتخر بعضهم على بعض.

ولما كان ذلك مخصوصاً بأهل الشهوات قال: {بينكم} أي يجر إلى الترفع الجارّ إلى الحسد والبغضاء، ثم أتبع ذلك ما يحصل به الفخر فقال: {وتكاثر} أي من الجانبين {في الأموال} أي التي لا يفتخر بها إلا أحمق لكونها مائلة {والأولاد} الذين لا يغتر بهم إلا سفيه لأنهم الأعداء، وأن جميع ما ذكر زائل وأن الدنيا آفاتها هائلة، وإنما هي فتنة وابتلاء يظهر بها الشاكر من غيره، ثم إلى ذلك كله قد يكون ذهابه عن قرب فتكون على أضداد ما كان عليه، فيكون أشد في الحسرة، ومطابقة ذلك لما بعده ان الإنسان ينشأ في حجر وليه فيشب ويقوى ويكسب المال والولد وثم تغشاه الناس فيكون بينهم أمور معجبة وأحوال ملهية مطربة، فإذا تم شبابه وأطفأه مجيئه وذهابه وأشكاله وأترابه، أخذ في الانحطاط ولا يزال حتى يشيب ويسقم ويضعف ويهرم وتصيبه النوائب والقوارع والمصائب في ماله وجسمه وأولاده وأصحابه، ثم في آخر ذلك يموت، فإذا قد اضمحل أمره ونسي عما قليل ذكره، وصار ماله لغيره وزينته متمتعاً بها سواه فالدنيا حقيرة وأحقر منها طالبها وأقل منها خطر المزاحم فيها، فما هي إلا جيفة، وطلاب الجيفة ليس لهم خطر،

وأخســهم من بخل بها، قال القشــيري: وهذه الدنيا المذمومة هي ما يشــغل العبد عن الآخر فكل ما يشغله عن الآخرة فهو الدنيا– انتهى.

ولما قرر ســـبحانه أنها ظل زائل وعرض هائل، وكان بعض الناس يتنبه فيشـكر وبعضـهم يعمى فيكفر، كان القسـم الثاني أكثر لأن وجودها وإقبالها يعمي أكثر القلوب عن حقارتها، ضـــرب لذلك مثلاً مقرراً لما مضـــى من وصـــفها لأن للأمثال في تقرير الأشــياء وتصــويرها ما ليس لغيرها فقال تعالى: {كمثل} أي هذا الذي ذكرته من أمرها يشـبه مثل {غيث} أي مطر حصل بعد جدب وسوء حال.

ولما كان المثل في ســياق التحقير للدنيا والتنفير عنها، عبر عن الزارع بما ينفر فقال: {أعجب الكفار} أي الزراع الذين حصل منهم الحرث والبذرة الذي يســتره الحارث بحرثه كما ســتر الكافر حقيقة أنوار الإيمان لما يحصـل من الجحد والطغيـان ولا يتنـاهى إعجـاب الزارع إلى حد يلهي عن الله إلا مع الكفر به ســبحانه فإن المؤمن وإن أعجبه ذلك يتذكر به قدرة الله ســبحانه وتعالى وعظمته وما أعد لأهل طاعته في الآخرة، فيحمله ذلك على الطاعة، فالتعبير بالكفار الذي هو بمعنى الزراع دونه إشـــارة إلى عظمة ذلك النبات فإنه لا يعجب العارفين به الممارســـين له الذين لهم غاية الإقبال على تلك الحرفة فالمنافســـة فيها إلا ما يكون منها نهاية في الإعجاب، وإلى أنه لا يعجب أحداً شــيء من الدنيا إعجاباً يركن ويأنس به أنســاً يؤدي إلى ما في الآية من اللهو وما معه إلا لكفر في نفســه أقله كفر النعمة التي من شــأنها أن تدعو إلى تذكر الخالق وتذكر الجميل على الشــكر، وترك الشــكر كفر

{نباته} أي نبات ذلك الغيب كما يعجب الكافر في الكفر في الغالب بسـط الدنيا له استدراجاً من الله تعالى.

ولما كان الزرع يشيخ بعد مُدَيدة فيضمحل كما هو شأن الدنيا كلها قال: {ثم يهيج} أي يسرع تحركه فيتم جفافه فيحين حصاده {فتراه مصفراً} أي عقب ذلك بالقرب منه على حالة لا ثمر معها بل ولا نبات، ولذلك قال معبراً بالكون لأن السياق للتزهيد في الدنيا وأنها ظل زائل لا حقيقة لها: {ثم} أي بعد تناهي جفافه وابيضاضه {يكون} أي كوناً كأنه مطبوع عليه، وأبلغ سبحانه في تقرير اضمحلاله بالإتيان مع فعل الكون هنا للمبالغة لأن السياق لتقرير أن الدنيا عدم وإن كانت في غاية الكثرة والإقبال والمؤاتاة بخلاف ما مضى في الزمر فقال: {حطاماً} كأن الحطامية كانت في جبلته وأصل طبعه.

ولما ذكر الظل الزائل، ذكر أثره الثابت الدائم مقسماً له على قسمين، فقال عاطفاً على ما تقديره هذا حال الدنيا في سرعة زوالها وتحقق فنائها واضمحلالها: {وفي} أي هذا الذي غر من حال الدنيا وهو في {الآخرة} على أحدهما {عذاب شديد} أي لمن أخذها بغير حقها معرضاً عن ذكر الله لأن الاغترار بها سببه، فكان كأنه هو.

ولما قدم ما هو السبب الأغلب لأن أكثر الخلق هالك، أتبعه الصنف الناجي. فقال: {ومغفرة} أي لأهل الدرجة الأولى في الإيمان {من الله} أي الملك الأعظم لمن يذكر بما صنعه له في الدنيا عظمته سبحانه وجلاله فتاب من ذنوبه، ورجع إليه في التطهير من عيوبه {ورضوان} لأهل الدرجة

العليا وهم من أقبل عليه سبحانه فشكره حق شكره ببذل وسعه فيما يرضيه، فآخر الآية تقسيم للدنيا على الحقيقة لئلا يظن من حصرها فيما ذكر أول الآية أنها لا تكون إلا كذلك، فالمعنى أن الذي ذكره أولاً هو الأغلب لأحوالها وعاقبته النار، وما كان منها من إيمان وطاعة ونظر توحيد لله وتعظيم ومعرفة تؤدي إلى أخذها تزوداً ونظرها اعتباراً وتعبداً، فهو آخره لا دنيا، وقد تحرر أن مثل الغيث المذكور الحطام وتارة يعقبه نكد لازم وأخرى سرور دائم، فمن عمل في ذلك عمل الحزمة فحرس الزرع ما يؤذيه وحصده في وقته وعمل فيه ما ينبغي ولم ينس حق الله فيه سره أثره وحمدت عاقبته، ومن أهمل ذلك أعقبه الأسف، وذلك هو مثل الدنيا: من عمل فيها بأمر الله أعقبته حطاميتها سروراً دائماً، ومن أهمل ذلك أورثته حزناً لازماً، وكما كان التقدير: فما الآخرة لمن سعى لها سعيها وهو مؤمن إلا حق مشهور وسعي مشكور، عطف عليه قوله: {وما الحياة الدنيا} أي لكونها تشغل بزينتها مع أنها زائلة {إلا متاع الغرور *} أي لهو في نفسه غرور لا حقيقة له إلا ذلك، لأنه لا يجوز لمن أقبل على التمتع إلا ذلك لأنه لا يسر بقدر ما يضر.

▲ تفسير الآية رقم [21]

{سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (21)}

ولما بين أن الدنيا خيال ومحال ليصـــرف الكملة من العباد عنها لســـفولها وحقارتها، وأن الآخرة بقاء وكمال ليرغبوا غاية الرغبة فيها وليشـــتاقوا كل الاشتياق لكمالها وشرفها وجلالها، أنتج ذلك قوله تعالى: {سابقوا} أي افعلوا في السعي لها بالأعمال الصالحة حق السعي فعل من يسابق شخصاً فهو يسـعى ويجتهد غاية الاجتهاد في سـبقه، ولكن ربما كان قرينه بطيئاً فسـار هويناً، وأما المسارعة فلا تكون إلا بجهد النفس من الجانبين مع السرعة في العرف، فآية آل عمران الآمرة بالمســارعة الأخص من المســابقة أبلغ لأنها للحث على التجرد عن النفس والمال وجميع الحظوظ أصــلاً ورأســاً، ولذلك كانت جنتها للمتقين الموصـوفين. وأما هذه ففي سـياق التصـديق الذي هو تجرد عن فضول الأموال ولذلك كانت جنته للذين آمنوا.

ولما كان المقام عظيماً، والإنسـان- وإن بذلك الجهد- ضـعيفاً، لا يسـعه إلا العفو سـواء كان ســابقاً أو لاحقاً من الأبرار والمقربين، نبه على ذلك بقوله في الســابقين؛ {إلى مغفرة} أي ســتر لذنوبكم عيناً وأثراً {من ربكم} أي المحســن إليكم بأن رباكم وطوركم بعد الإيجاد بأنواع الأســباب بأن تفعلوا أسباب ذلك بامتثال أوامره سبحانه واجتناب زواجره. ولما كان المقصود من المغفرة ما يترتب عليها من نتيجتها قال: {وجنة} أي وبسـتان هو من عظم أشــجارها واطراد أنهارها بحيث يســتر داخله. ولما كان ذلك لا يكمل إلا بالسـعة قال: {عرضــها} أي فما ظنك بطولها. ولما كان السـياق كما بين للتجرد عن فضول الأموال فقط لأن الموعود به دون ما في آل عمران فأفرده وصــرح بالعرض فقال: {كعرض السـماء والأرض} أي لو وصــل بعضــها

ببعض، فآية آل عمران تحتمل الطول وجميع السماوات والأرض على هيئتها، ويحتمل أن يكون ذلك على تقدير أن تقد كل واحدة منهما ويوصل رأس كل قدة برأس الأخرى، وتمتد جميع القدات إلى نهايتها على مثل الشراك، وهذه الآية ظاهرها عرض واحد وأرض واحدة {أعدت} أي هيئت هذه الجنة الموعود بها وفرغ من أمرها بأيسر أمر {للذين آمنوا} أي أوقعوا هذه الحقيقة وهم من هذه الأمة إيقاعاً لا ريب معه ولو أنه على أدنى الوجوه فكانوا من السابقين، وهذا يدل على أن الجنة موجودة الآن في آيات كثيرة، وأن الإيمان كاف في استحقاقها، وأحاديث الشفاعة مؤيدة لذلك {بالله} أي الذي له جميع العظمة لأجل ذاته مخلصين له بالإيمان {ورسله} فلم يفرقوا بين أحد منهم، فهذه الجنة غير مذكورة في آل عمران، وإن قيل: إن السماء هنا للجنس لكون السياق فيه الصديقون والشهداء كانت أبلغته تلك بالتصريح بالجمع وعدم التصريح بالعرض لكونها في سياق صرح فيه بالجهاد، وقد جرت السنة الإلهية بإعظام للمجاهدين لشدة الخطر في أمر النفس وصعوبة الخروج عنها وعن جميع المألوفات.

ولما كان من ذكر من الوعد بالمغفرة والجنة عظيماً لا سيما لمن آمن ولو كان إيمانه على أعلى الدرجات ومع التجرد من جميع الأعمال، عظمه بقوله رداً على من يوجب عليه سبحانه شيئاً من ثواب أو عقاب: {ذلك} أي الأمر العظيم جداً {فضل الله} أي الملك الذي لا كفوء له فلا اعتراض عليه {يؤتيه من يشاء} ولعل التعبير بالمضارع للإشارة إلى هذا خاص بهذه الأمة التي هي أقل عملاً وأكثر أجراً، فإذا حسدهم أهل الكتاب قال تعالى : هل

ظلمتكم من أمركم شـيئاً، فإذا قالوا: لا، لأن المصـروف من الأجر لجميع الطوائف على حسب الشرط، قال: ذلك فضلي أوتيه من أشاء. {والله} أي والحال أن الملك المختص بجميع صفات الكمال فله الأمر كله {ذو الفضل العظيم *} أي الذي جل عن أن يحيط بوصفه العقول.

▲ تفسير الآيات رقم [22- 23]

{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22)
لِكَيْلَا تَأْسَـوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آَتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (23)}

ولما كانت الدنيا مانعة عن العكوف إلى الآخرة بلذاتها وآلائها، وكانت كما أنها منزل رخاء هي دار بلاء، وكان قد اقتصـر سـبحانه في الآية السـالفة على الأول لأن السياق للإنفاق والترغيب في معالي الأخلاق وجعل المسابقة إلى السـعادة نتيجة الزهد فيها، تحركت النفس إلى السـؤال عما يعوق عن الخير من الضـرب بسـياط البلاء فقال مسـلياً عنه لأن النفوس أشـد تأثراً بالمكاره وأسـرع انفعالاً بالمقارع ومحققاً ومغرياً بالإعلام بأنه لم يكن فيها خير ولا شر إلا بقضاء حتم في الأزل وقدر أحكم ووجب حين لم يكن غيره شـيء عز وجل، وذكر فعل المؤنث الجائز التذكير لكون التأنيث غير حقيقي إشـارة إلى عظم وقع الشـر: {ما أصـاب} وأكد النفي فقال: {من مصيبة} وهي في الأصل لكل آت من خير أو شر إلا أن العرف خصها بالشر، وعم الساكن والمتحرك بقوله: {في الأرض} أي من منابتها ومياهها

ونحو ذلك {ولا في أنفسكم} أي بموت ومرض وعين وعرض {إلا} هي كائنة {في كتاب} أي مكتوب لأنه مقدر مفروغ من القدم، وبين أن الكتابة حدثت بعد أن كان هو سـبحانه ولا شـيء معه بإدخال الجارّ فقال: {من قبل أن نبرأها} أي نخلق ونوجد ونقدر المصـيبة والأرض والأنفس، وهذا دليل على أن اكتساب العباد يجعله سبحانه وتقديره.

ولما كان ذلك متعذراً على المخلوق فهو أشد شيء تكرهاً له وقوفاً مع الوهم قال مؤكداً: {إن ذلك} أي الأمر الجليل وهو علمه بالشـيء وكتبه له على تفاصيله قبل كونه، ثم سوقه النفوس والأسباب إلى إخراجه بعد التكوين على مقدار ما سـبق علمه به وكتبه له {على الله} أي على ما له من الإحاطة بالكمال {يسـير *} لأن علمه محيط بكل شـيء وقدرته شـاملة لا يعجزها شيء.

ولما بين هذا الأمر العظيم الدال على ما له سـبحانه من الكبرياء والعظمة، بين ثمرة أعماله بقوله: {لكيلا} أي أعملناكم بأن على ما لنا من العظمة قد فرغنا من التقدير، فلا يتصـور فيه تقديم ولا تأخير ولا تبديل ولا تغيير، لأن الحزن لا يدفعه، ولا السـرور يجلبه ويجمعه، كما قال النبي صـلى الله عليه وسـلم: «يا معاذ ليقلّ همك ما قدر يكن» لأجل أن لا {تأسـوا} أي تحزنوا حزناً كبيراً زائداً {على} ما في أصـل الجبلة، يوصـل إلى المبلغ بتعاطي أسـبابه والتمادي فيها ليتأثر عنها السـخط وعدم الرضـا بالقضـاء، فربما جر ذلك إلى أمر عظيم {ما فاتكم} من المحبوبات الدنيوية {ولا تفرحوا} أي تسروا سروراً يوصل إلى البطر بالتمادي مع ما في أصل الجبلة {بما آتاكم}

أي جاءكم منها على قراءة أبي عمرو بالقصـــــر، وأعطاكم الله على قراءة الباقين بالمد، وهي تدل على أن النعم لا بد في إيجادها وإبقائها من حافظ، ثم إنها لو خليت ونفسها فاتت لأنه ليس من ذاته إلا العدم، وقد بين سبحانه أن في تقديره هذا وكتبه من السـر أن من وطن نفســه على فقد ما لديه من أعيان ومعان قبل أن تأمره بالعدم والوجدان، فلم يغيره ذلك عن المســـابقة المذكورة، فالمنهي عنه التمادي مع الحزن حتى يخرج عن الصبر ومع الفرح حتى يلهي عن الشـكر، لا أصـل المعنى لأنه ليس من الأفعال الاختيارية، قال جعفر الصـادق: ما لك تأسف على مفقود ولا يرده إليك الفوت، وما لك تفرح بوجود ولا يتركه في يدك الموت- انتهى، ولقد عزى الله المؤمنين رحمة لهم في مصـــائبهم وزهدهم في رغائبهم بأن أســـفهم على فوت المطلوب لا يعيده، وفرحهم بحصـــول المحبوب لا يفيدهم، ولأن ذلك لا مطمع في بقائه إلا بادخاره عند الله، وذلك بأن يقول في المصيبة: قدر الله وما شاء الله فعل ويصير في النعمة هكذا قضى، وما أدري ما مثله

{هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر} [النمل: 40] فلا يزال خائفاً عند النقمة راجياً أثر النعمة، قائلاً في الحالين: ما شـاء الله كان وما لم يشـأ لم يكن، وأكمل من هذا أن يكون مســـروراً بذكر ربه له في كلتا الحالتين كما قال القائل:

سقياً لمعهدك الذي لو لم يكن *** ما كان قلبي للصبابة معهدا

وهذه صـــفة المتحررين من رق النفس، وقيمة الرجال إنما تعرف بالواردات المغيرة، فمن لم تغيره المضـار ولم يتأثر بالمسـار فهو سيد وقته، أشـار إليه

القشيري. ولما كان الإمعان في استجلاب الأسى إنما هو من اليأس ونسيان النعم وزيادة الفرح الموصـــــل إلى المرح إنما يجره الكبر والمرح، وكان في أوصـاف أهل الدنيا التفاخر، قال تعالى مبيناً أن المنهي عنه سـابقاً التمادي مع الجبلة في الحزن والفرح، عاطفاً على ما تقديره: {فإن الله لا يحب كل يؤوس كفور} {والله لا يحب} أي لا يفعل فعل المحب بأن يكرم {كل مختال} أي متكبر نظر إلى ما في يده في الدنيا {فخور *} قال القشـيري: الاختيال من بقايا النفس ورؤيتها، والفخر من رؤية خطر ما به يفتخر.

▲ تفسير الآيات رقم [24- 25]

{الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24)

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25)}

ولما كان من جملة صــــفات المختال المكاثر بالمال البخل، وكان قد تقدم الحث على الإنفاق، وكان ما يوجبه لذة الفخار والاختيال التي أوصــل إليها المال حاملة على البخل خوفاً من الإقتار الموجب عند أهل الدنيا للصـغار، قال تعالى واصــفاً للمختال أو {لكل}: {الذين يبخلون} أي يوجدون هذه الحقيقة مع الاسـتمرار {ويأمرون الناس} أي كل من يعرفونه {بالبخل} إرادة أن يكون لهم رفقاء يعملون بأعمالهم الخبيثة فيحامون عنهم أو أنهم يوجبون بأعمالهم من التكبر والبطر في الأموال التي حصــلها لهم البخل اســتدراجاً

من الله لهم بخل غيرهم لأنه إذا رآهم عظموا بالمال بخل ليكثر ماله ويعظم، وذلك كله نتيجة فرحهم بالموجود وبطرهم عند إصـابته، فكانوا آمرين بالبخل لكونهم أسباباً له والسبب كالآمر في إيجاد شيء.

ولما كان التقدير : فمن أقبل على ما ندب إليه من الإقراض الحسـن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن الله شـكور حليم، عطف عليه قوله ذاماً للبخل محذراً منه: {ومن يتول} أي يكلف نفسـه من الإعراض ضـد ما في فطرتـه من محبـة الخير والإقبـال على الله {فـإن الله} أي الـذي لـه جميع صـفات الكمال {هو} أي وحده {الغني} أي عن ماله وإنفاقه وكل شـيء إلى الله مفتقر {الحميد *} أي المسـتحق للحمد وسـواء حمده الحامدون أم لا، وقراءة نافع وابن عامر بإسـقاط هو مفيدة لحصـر المبتدأ في الخبر للتعريف وإن كانت قراءة الجماعة آكد.

ولما ظهرت الأدلة حتى لم يبق لأحد علة، وانتشـر نورها حتى ملأ الأكوان، وعلا علواً تضاءل دون عليائه كيوان، وكان فيما تقدم شرح مآل الدنيا وبيان حقيقتها، وأن الأدمي إذا خلي ونفسـه ارتكب ما لا يليق من التفاخر وما شـاكله وترك ما يراد بـه مما دعي إليـه من الخير جهلاً منـه وانقياداً مع طبعه، وكان ختم الآية السابقة ربما أوهم المشاركة، قال تعالى نافياً ذلك في جواب من توقع الإخبار عن سـائر الأنبياء : هو أوتوا من البيان ما أزال اللبس، مؤكداً لإزالة العذر بإقامة الحجج بإرسال الرسل بالمعجزات الحاضرة والكتب الباقية، معلماً أن من أعرض كلف الإقبال بالسـيف، فإن الحكيم العظيم تأبى عظمته وحكمته أن يخلي المعرض عن بينة ترده عما هو فيه،

وقسر يكفيه عما يطغيه: {لقد أرسلنا} أي بما لنا من العظمة {رسلنا} أي الذين لهم نهاية الإجلال بما لهم بنا من الاتصال من الملائكة إلى الأنبياء على جميعهم أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام، ومن الأنبياء إلى الأمم {بالبينات} أي الموجبة للإقبال في الحال لكونها لا لبس فيها أصلاً، ودل على عظمة أنبيائه عليهم الصلاة والسلام بأنهم لعلو مقاماتهم بالإرسال كأنهم أتوا إلى العباد من موضع عال جداً فقال: {وأنزلنا} بعظمتنا التي لا شيء أعلى منها {معهم الكتاب} أي الحافظ في زمن الاستقبال في الأحكام والشرائع.

ولما كان فهم الكتاب ربما أشكل فإنه يحتاج إلى ذهن صقيل وفكر طويل، وصبر كبير وعلم كثير– قال الرازي: وبهذا قيل: لولا الكتاب لأصبح العقل حائراً ولولا العقل لم ينتفع بالكتاب، عقبه بما يشترك في معرفته الكبير والصغير، والجاهل والنحرير، وهو أقرب الأشياء إلى الكتاب في العلم بمطابقة الواقع لما يراد فقال: {والميزان} أي العدل والحكمة، ولعله كل ما يقع به التقدير حساً أو معنى، وتعقيبه به إشارة إلى أن عدم زيغه لعدم حظ ونحوه، فمن حكم الكتاب خالياً عن حظ نفس وصل إلى المقصود {ليقوم الناس} أي الذين فيهم قابلية التحرك إلى المعالي كلهم {بالقسط} أي العدل الذي لا مزيد عليه لانتظام جميع أحوالهم، هذا لمن أذعن للبينات لذات من أقامها أو للرغبة فيها عنده.

ولما كان الإعراض بعد الإبلاغ في الإيضاح موجباً للرد عن الفساد بأنواع الجهاد، قال مهدداً وممتناً ترغيباً وترهيباً معبراً عن الخلق بالإنزال تشريفاً

وتعظيماً: {وأنزلنا} أي خلقنا خلقاً عظيماً بما لنا من القدرة {الحديد} أي المعروف على وجه من القوة والصـــلابة واللين والحدة لقبول التأثير يعد به كالبائن لما في الأرض، فلذلك ســـمي إيجاده إنزالاً، ولأن الأوامر بالإيجاد والإعدام تتزل من الســماء على أيدي الملائكة لأن الســماء محل الحوادث الكبار، والبدائع والأسرار، لأن الماء الذي هو أصله وأصل كل نام ينزل من السماء وتكون الأرض له بمنزلة الرحمن للنطفة.

ولما وقع التشـوف إلى سـبب إنزاله، قال: {فيه بأس} أي قوة وشـدة وعذاب {شـديد} لما فيه من الصـلابة الملائمة للمضـاء والحدة {ومنافع للناس} بما يعمل منه من مرافقهم ومعاونهم لتقوم أحوالهم بذلك، قال البيضـاوي: ما من صــنعة إلا والحديد آلتها. ولما كان التقدير: ليعلم الله من يعصــيه ويخذل أولياءه، بوضــع بأســه في غير ما أمر به نصــرة لشـيطانه وهواه وافتتانه، عطف عليه قوله: {وليعلم الله} أي الذي له جميع العظمة علم شـهادة لأجل إقامة الحجة بما يليق بعقول الخلق فيكون الجزاء على العمل لا على العلم، وأوقع ضمير الدين عليه سبحانه تعظيماً له لأنه شارعه فقال: {من ينصره} أي يقبل مجداً على الاستمرار على نصر دينه {ورسله} بالذب عنهم والدعاء إليهم، كائناً ذلك النصــر {بالغيب} من الوعد والوعيد، أي بسـبب تصـديق الناصـــر لما غاب عنه من ذلك، أو غائباً عن كل ما أوجب له النصـــرة، وروي عن ابن عباس رضـي الله عنهما أنه قال: ينصـرونه ولا يبصـرونه- انتهى. فلم يدع سـبحانه في هذه الآية لأحد عذراً بالرسـل الذين هم الجنس مع تأييدهم بما ينفي عنهم اللبس، والكتاب العالي عن كلام الخلق، والعقل

الذي عرف العدل، والسلاح الذي يرد أولي الجهل، كما قال صلى الله عليه وسلم:

»بعثت بين يدي الساعة بالسيف» فبيان الشرائع بالكتاب، وتقويم أبواب العدل بالميزان، وتنفيذ هذه المعاني بالسيف، فإن مصالح الدين من غير هيبة السلطان لا يمكن رعايتها، فالملك والدين توأمان، فالدين بلا ملك ضائع، والملك من غير دين باطل، والسلطان ظل الله في الأرض، فظواهر الكتاب للعوام، ووزن معارفه لأهل الحقائق بالميزان، ومن خرج عن الطائفتين فله الحديد وهو السيف، لأن تشويش الدين منه– نبه عليه الرازي. ولما كان طالب النصرة مظنة لتوهم الضعف، قال نافياً لذلك مؤكداً قطعاً لتعنت المتعنتين مظهراً للاسم الأعظم إشارة إلى أن من له جميع صفات الكمال لا يمكن أن تطرقه حاجة: {إن الله} أي الذي له العظمة كلها. ولما لم يكن هنا داع إلى أكثر من هذا التأكيد: بخلاف ما أشير إليه من الإخراج من الديار المذكورة في الحج ونحوه، قال معلماً بأنه غني عن كل شيء معرياً الخبر من اللام: {قوي} أي فهو قادر على إهلاك جميع أعدائه وتأييد من ينصره من أولياءه {عزيز *} فهو غير مفتقر إلى نصر أحد، وإنما دعا عباده إلى نصر دينه ليقيم الحجة عليهم فيرحم من أراد بامتثال المأمور، ويعذب من يشاء بارتكاب المنهي، ببنائه هذه الدار على حكمة ربط المسببات بالأسباب.

▲ تفسير الآيات رقم [26 –27]

{وَلَقَدْ أَرْسَــــلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (26)

ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْــــوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (27)}

ولما عم الرســــل جامعاً لهم في البينات، فكان الســــامع جديراً بأن يتوقع التعيين، وخص من بينهم من أولي العزم أبوين جامعين في الذرية والرسالة، لأن ذلك أنسـب لمقصـود السـورة لتبيين فضـل محمد صـلى الله عليه وسـلم الذي عم برسـالته عموماً لم يكن لأحد غيره، فنوح عليه السـلام أرسـل لأهل الأرض لكونهم كانوا على لســان واحد، وعموم إبراهيم عليه الســـلام بأولاده عليهم الســـلام ونص بعدهما على عيســـى عليه الســـلام بما له من عموم الرســـالة إلى بني إســـرائيل بالنســـخ والتشـــريع، ثم من نزوله في هذه الأمة بالتقرير والتجديد فقالك {ولقد أرسلنا} أي بما لنا من صفات الكمال والجمال والجلال {نوحاً} الأب الثاني، وجعلنا الأغلب على رســـالته مظهر الجلال {وإبراهيم} أبا العرب والروم وبني إســـرائيل الذي أكثر الأنبياء من نســـله، وجعلنا الأغلب على رسـالته مجلى الإكرام {وجعلنا} بما لنا من العظمة {في ذريتهما النبوة} المقتضـية للوصـلة بالملك الأعظم لتنفيذ الأوامر {والكتاب}

الجامع للأحكام الضـــابط للشـــرائع بأن اســـتنبأنا بعض ذريتهما وأنزلنا إليهم الكتب فلا يوجد نبي ولا كتاب إلا وهو مدلٍ إليهما بأمتن الأســـباب وأعظم الأنساب.

ولما كان مظهر العظمة مقتضـياً لإشـقاء من أريد إشـقاؤه مع عدم المبالاة به، كائناً من كان، سواء اتصل بالأولياء أو الأعداء لئلا يأمن أحد فيقع في الخسـران أو ييأس أحد فيلزم الهوان قال: {فمنهم} أي ذرية هذين الصـنفين {مهتد} هو بعين الرضـا منا- وهو من لزم طريق الأصـفياء واسـتمسـك بعهدهم ولم يزغ أصلاً وإن كان من أولاد الأعداء.

ولما كان من زاغ بعد تذكيره بالكتب والرسـل، كان مسـتحقاً للمبالغة في الذم ولو أنه واحد فكيف إذا كان كثيراً، نبه بتغيير الســـياق على ذلك وعلى أن الأغلب الضلال فقال: {وكثير منهم} أي الذرية الموصوفين {فاسقون *} هم بعين الســخط وإن كانوا أولاد الأصــفياء وهم من خالف الأولياء بمنابذة أو ابتداع أو زيغ عن سبيلهم بما لم ينهجوه من تفريط وإفراط.

ولما كان من مقاصد هذه السورة العظمى الإعلام بنسخ الشرائع كلها بشريعة هذا النبي الفاتح العام الرســالة لجميع الخلائق صــلى الله عليه وســلم، قال مشـيراً إلى عظمة الإرسـال والرسـل بأداة التراخي: {ثم قفينا} أي بما لنا من العظمة تقفية لها من العظمة ما يجل وصـــفه {على آثارهم} أي الأبوين المذكورين ومن مضــى قبلهما من الرســل، ولا يعود الضـمير على {الذرية} لأنها باقية مع الرسل وبعدهم {برسلنا} أي فأرسلناهم واحداً في أثر واحد بين ما لا يحصى من الخلق من الكفرة محروسين منهم في الأغلب بما تقتضيه

العظمة، لا ننشـــئ آثار الأول منهم حتى نرســل الذي بعده في قفاه، فكل رســـول بين يدي الذي بعده، والذين بعده في قفاه- فهو مقف له لأن الأول ذاهب إلى الله والثاني تابع له، فنبينا صـلى الله عليه وسـلم أعرق الناس في هذا الوصف لأنه لا نبي بعده، ولهذا كان الوصف أحد أسمائه.

ولما كان عيســى عليه الســلام أعظم من جاء بعد موســى عليه الســلام من بني إسرائيل فهو الناسخ لشريعته والمؤيد به هذا النبي الخاتم صلى الله عليه وسـلم في تجديد دينه وتقرير شـريعته، وكان الزهد والرأفة والرحمة في تابعيه في غاية الظهور مع أن ذلك لم يمنعهم من القســوة المنبهة ســابقاً على أن الموجب لها طول الأمد الناشــئ عنها الإعراض عن الآيات الحاضــرة معه والكتاب الباقي بعده، خصـــه بالذكر وأعاد العامل فقال: {وقفينا} أي أتبعنا بما لنا من العظمة على آثارهم قبل أن تدرس {بعيســى ابن مريم} وهو آخر من قبل النبي الخاتم عليهم الصلاة والسلام، فأمته أول الأمم بالأمر باتباعه صلى الله عليه وسلم {وآتيناه} بما لنا من العظمة {الإنجيل *} كتاباً ضابطاً لما جاء به مقيماً لملته مبيناً للقيامة مبشـــراً بالنبي العربي موضـــحاً لأمره مكثراً من ذكره {وجعلنا} لعزتنا {في قلوب الذين اتبعوه} أي بغاية جهدهم، فكانوا على مناهجه {رأفة} أي أشـد رقة على من كان يتسـبب إلى الاتصـال بهم {ورحمة} أي رقة وعطفاً من لم يكن له سـبب في الصـلة بهم كما كان الصـحابة رضـي الله تعالى عنهم رحماء بينهم حتى كانوا أذلة على المؤمنين مع أن قلوبهم في غاية الصـلابة فهم أعزة على الكافرين، وترتيب الوصـفين هكذا أدل دليل على أنهما لم يقصـد بهما مراعاة الفواصـل في {رؤف رحيم}

كما قاله بعض المفسرين وتقدم في آخر براءة أن ذلك قول لا يحل التصويب إليه ولا التعويل عليه وإن قاله من قال {ورهبانية} أي أموراً حاملة على الرهبية والتزيي بزيها والعمل على حسـبها مبالغة في العبادة والرياضة والانقطاع عن الناس.

ولم قدم المعمول لفعل غير مذكور ليدل عليه بما يفسره ليكون مذكوراً مرتين تأكيداً له إفهاماً لذم نفس الابتداع، أتبعه المفسر لعامله فقال: {ابتدعوها} أي حملوا أنفسهم على عملها والتطويق بها من غير أن يكون لهم فيها سلف يعلمونه أو يكون بما صـرح به كتابه وإن كانت مقاصده لا تأباها فاعتزلوا لأجلها الناس، وانقطعوا في الجبال على الاستئناس، وكانت لهم بذلك أخبار شائعة في النواحي والأمصار، وفي التقديم على العامل سر آخر وهو الصلاحية للعطف على ما قبلها لئلا يتوهم في لفظ الابتداع أن لا صنع لله فيها {ما كتبناها} أي فرضناها بعظمتنا {عليهم} في كتابهم ولا على لسان رسولهم {إلا} أي لكن ابتدعوها {ابتغاء} أي لأجل تكليفهم أنفسهم الوقوع بغاية الاجتهاد في تصـفية القلوب وتهذيب النفوس وتزكية الأعمال على {رضوان الله} أي الرضا العظيم من الملك الأعظم، وساق المنقطع مساق المتصل إشارة إلى أنه مما يرضي الله، وأنه ما ترك فرضها عليهم إلا رحمة لهم لأجل صعوبتها، وأنه صيرها بعد إلزامهم بها كالمكتوبة، فيكون التقدير حينئذ: إلا لأجل أن يبتغوا رضوانه على وجه الثبات والدوام، قال الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المصري في كتابه «فتوح مصر والمغرب»: فلما أن أغرق الله عز وجل فرعون وجنوده كما حدثنا

هانئ بن المتوكل عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن تبيع قال: استأذن الذين كانوا آمنوا من السحرة لموسى عليه السلام في الرجوع إلى أهله وماله بمصر فأذن لهم ودعا لهم فترهبوا مع رؤوس الجبال، فكانوا أول من ترهب، وكان يقال لهم الشيعة، وبقيت طائفة منهم مع موسى عليه السلام حتى توفاه الله عز وجل، ثم انقطعت الرهبانية بعدهم حتى ابتدعها بعد ذلك أصحاب المسيح عليه السلام.

ولما تسبب عن صعوبتها أنهم أضاعوها بالتقصير عن شؤونها والسفول عن عليائها قال: {فما رعوها} أي حفظوها كلهم بحفظ من هو مرتاع من خوف ضياعها {حق رعايتها} بصون العناية في رعاية الأعمال والأحوال والأقوال، فصون الأعمال توفيرها لتحقيرها من غير التفات إليها، ورعاية الأحوال عند الاجتهاد من أتاه والحال دعوى، ورعاية الوقت الوقوف مع حضور على بساط شهود الجلال- ذكره الرازي. بل غلبت عليهم صفات البشر فقصر بعضهم عن عالي مداها، وانحطوا عن شامخ ذراها، هذا تنفير عظيم عن البدع، وحث شديد على لزوم ما سنه الله وشرع، وتحذير من التشديد، فإنه لن يشادّ الدين أحد إلا غلبه وهو الترحال إلى البدعة ولهذا أكثر في أهل الرهبانية المروق من الدين بالاتحاد والحلول وغير ذلك من البلايا ولو كان يظهر أن التشديد والتعمق خير لأن الشارع الذي أحاط علماً بما لم يحط به نهى عنه، وقد أفادت التجربة أنه قد يغر لأن هؤلاء ابتدعوا ما أرادوا الخير، فكان داعياً لكثير منهم إلى دار البوار، وفيه أيضاً حث عظيم على المداومة على ما اعتيد من الأعمال الصالحة خصوصاً، ما عمل النبي صلى الله

عليه وسـلم عملاً إلا دوام عليه، وكان ينهى عن التعمق في الدين، ويأمر بالرفق والقصد.

ولما كانت متابعة النفس في التقصـير بالإفراط قد توصـل إلى المروق من الدين فيوجب الكفر فيحط على الهلاك كله، أشـار إلى ذلك بقوله: {فآتينا} أي بما لنا من صـفات الكمال {الذين آمنوا} أي اسـتمروا على الإيمان الكامل، ولعل في التعبير بالماضـي بعد إرادة التعميم للأدنى والأعلى إشـارة إلى إن المتعمق بين إيمان وكفر لا تجرد معصيته كما أشار إليه ختم الآية فهو في غاية الذم للتعمق والمدح للاقتصـاد {منهم} أي من هؤلاء المبتدعين لأنهم رعوها حق رعايتها ووصـلوا إيمانهم بعيسـى ومن قبله عليهم الصـلاة والسـلام بإيمانهم بمحمد صـلى الله عليه وسـلم الذي دعا إليه الخروج عن النفس الذي هو روح الرهبانية بموافقتهم لما في كتابهم من البشـائر به {أجرهم} أي اللائق بهم وهو الرضوان المضاعف.

ولما كانت متابعة الأهواء تكسـب صـفات ذميمة تصـير ملكات راسـخة للأنفس، أشـار إلى ذلك بالعدول عن النهج الأول فقال: {وكثير منهم} أي هؤلاء الذين ابتدعوا فضـيعوا {فاسـقون *} أي عريقون في وصـف الخروج عن الحدود التي حدها الله تعالى، روى البغوي من طريق الثعلبي عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من آمن بي فقد رعاها حق رعايتها، ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون» انتهى. ومثل هذه الرهبانية في أنها لا تأباها قواعد الدين ما يفهمه بعض العلماء من الكتاب والسنة فيتذكره، فيكون أخذنا له من الأصول التي نبه عليها لا منه،

كما أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم كانوا يفعلون أشياء فإن قررهم النبي صلى الله عليه وسلم كانت شرعاً لنا وكنا آخذين لها من تفسيره صلى الله عليه وسلم لا منهم، فإن من ملكه الله رتبة الاجتهاد في شيء وأمكنه فيه من القواعد فأداه اجتهاده إلى أن هذا مندوب إليه مرغوب فيه مثلاً، كان ذلك بما يشهد له من قواعد الدين بمنزلة ما قاله الصحابة رضي الله عنهم فأقرهم النبي صلى الله عليه وسلم، ولا فرق بين أن يقرره النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه أو بقواعد شريعته، ومهما كان مقرراً بقواعد شرعه كان عليه أمره، ومهما لم يكن مقرراً بها كان مما ليس عليه أمره فهو رد على قائله، فهذا فرق بين البدع الحسنة والبدع القبيحة– والله الموفق، وذكر ابن برجان تنزيل هذا الحديث الذي فيه «لتتبعن سنن من كان قبلكم» فذكر أن أصحاب عيسى عليه السلام عملوا بعده بالإنجيل حتى قام فيهم ملك بدل كتابهم، وشايعه على ذلك روم ويونان، فضعف أهل الإيمان، فاستذلوهم حتى هربوا إلى البراري، وعملوا الصوامع وابتدعوا الرهبانية، وكذلك كان في هذه لتصديق الحديث الشريف فإنه لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم تبعه خلفاؤه بإحسان، فلما مضت الخلافة الراشدة تراكمت الفتن كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتد البلاء على المتمسكين بصريح الإيمان، ورجم البيت العتيق بحجارة المنجنيق وهدم، وقتل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما واستبيحت مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام، وقتل خيار من فيها فرأى المسلمون العزلة واجبة، فلزموا الزوايا والمساجد وابتنوا الروابط على سواحل البحر وأخذوا في الجهاد للعدو والنفوس، وعالجوا

تصفية أخلاقهم ولزموا الفقر أخذاً من أحوال أهل الصفة، وتسموا بالصوفية وتكلموا على الورع والصـــــدق والمنـازل والأحوال والمقـامـات فهؤلاء وزان أولئك– والله الموفق.

ذكر ما في الإنجيل ما من الحكم التي توجب الزهد في الدنيا والإقبال على الله التي يصح تمسك أهل هذه الرهبانية بها: قال متى وغيره وأغلب السياق لمتى: إن أخطأ عليك أخوك فاذهب أعتبه وحدكما، فإن ســـمع منك فقد ربحت أخاك، وإن لم يســـمع منك فخذ معك واحداً أو اثنين، لأن من فم شـــاهدين أو ثلاثة تقوم كل كلمة، وإن لم يســـمع منهم فقل للبيعة، فإن لم يسمع من البيعة فيكون عندك كالوثني والعشار، الحق أقول لكم، وقال لوقا: انظروا الآن إن أخطأ إليك أخوك فانهه، فإن تاب فاغفر له، فإن أخطأ إليك سبع دفعات في اليوم ورجع إليك سبع دفعات يقول لك: أنا تائب، فاغفر له، وقال متى: حينئذ جاء إليه بطرس وقال له: إذا أخطأ إليّ أخي لم أغفر له سبع مرات، قال: ليس أقول لك إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرة، ولهذا يشبه ملكوت السماوات ملكاً أراد أن يحاسب عبيده، فلما بدأ بمحاسبتهم قدم إليه عبد مديون عليه جملة وزنات، ولم يكن معه ما يوفي، فأمر ســـيده أن تباع امرأته وبنوه وكل ما له حتى يوفي، فخر ذلك العبد له ساجداً قائلاً: يا رب، ترأف عليّ تأن، أوفك كل مالك، فتحنن عليه ســـيده وترك له كل ما عليه، فخرج ذلك العبد فوجد عبداً من أصـــدقائه عليه مائة دينار فأمســـكه وخنقه وقال: أعطني ما عليك، فخر ذلك العبد على رجليه وطلب إليه قائلاً: ترأف عليّ فأنا أعطيك مالك، فأبى ومضـــى ورتكه في الســـجن حتى يوفي

الدين، فرأى العبد أصحابه فحزنوا عليه جداً وأعلموا سيده بكل ما كان منه، حينئذ دعاه سيده وقال له: أيها العبد الشرير! كل ما كان عليك تركت بذلك لأنك سـألتني، ما كان ينبغي لك أن ترحكم ذلك العبد صـاحبك كرحمتي إياك، وغضـب سـيده ودفعه إلى المعذبين حتى يوفي جميع ما عليه، هكذا أبي السماوي يصنع بكم إن لم تغفروا لإخوانكم سيئاتهم من كل قلوبكم، فلما أكمل يسـوع هذا الكلام انتقل من الجليل وجاء إلى تخوم يهود عبر الأردن فتبعه جمع كثير فأبرأهم هناك، قال لوقا: فلما أكمل أيام صعوده أقبل بوجهه إلى يروشليم، وأرسل مخبرين قدام وجهه فمضوا ودخلوا قرية السامرة، لكيما يعدوا له فلم يقبلوه فقال تلميذاه يعقوب ويوحنا: يا رب تريد أن نقول فتنزل عليهم نار من السـماء فتهلكهم كما فعل إليا، فالتفت فنهرهما قائلاً: لسـتما تعرفان أي روح أنتما، إن ابن البشـر لم يأت ليهلك نفوس الناس بل يحيي، ومضى إلى قرية أخرى، وقال متى: حينئذ قدم إليه صبيان ليضع يده عليهم ويباركهم فنهرهم التلاميذ فقال لهم يسوع: جعوا الصبيان ولا تمنعوهم أن يأتوا إليّ لأن ملكوت السماوات لمثل هؤلاء، ووضـع يده عليهم وبارك لهم، وقال مرقس: الحق أقول لكم، إن من لا يقبل ملكوت الله مثل صـبي لا يدخلها، واحتضـنهم ووضـع يده عليهم وباركهم، وقال متى: ومضـى من هناك وجاء إليه واحد وقال: يا معلم صـالح– وقال مرقس: أيها الملعم الصـالح– ما أعمل من الصـلاح لأرث الحياة الدائمة، قال له: لماذا تقول: صـالح، ولا صالح إلا الله الواحد، إن كنت تريد أن تدخل الحياة احفظ الوصايا، قال له: وما هي؟ قال يسوع: لا تقتل ولا تسرق ولا تزن ولا تشهد الزور، وقال مرقس:

لا تجر، أكرم أباك وأمك- حب قريبك مثلك، قال له الشـــاب: كل هذا قد حفظته من صــغري، قال له يســوع: إن كنت تريد أن تكون كاملاً فاذهب، وقال مرقس: فنظر إليه يســـوع وأحبه، وقال: تريد أن تكون كاملاً، واحدة بقيت عليك: امض وبع كل شــيء لك وأعطه للمســاكين ليكون لك كنز في السـماء وتعال اتبعني، فلما سـمع الشـاب الكلام مضــى حزيناً لأنه كان له مال كثير، فقال يســوع لتلامذته: الحق أقول لكم! إنه يعســـر على الغني الدخول إلى ملكوت السماء، وأيضاً أقول لكم: إنه أسهل أن يدخل الجمل في ثقب الإبرة من غني يدخل ملكوت السـماوات، فلما سـمع التلاميذ بهتوا جداً وقالوا: من يقدر أن يخلص، فنظر يســـوع وقال لهم: أما عند الناس فلا يستطاع هذا، وأما عند الله فكل يستطاع، حينئذ أجاب بطرس وقال له: هو ذا نحن قد تركنا كل شـــيء وتبعناك، فماذا عســـى أن يكون لنا، قال لهم يســـوع: الحق والحق أقول لكم! أنتم الذين اتبعتموني في الجبل الآتي إذا جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم على اثني عشر كرسياً، تدينون اثني عشر سبط بني إسرائيل، كل ما ترك بنين أو أخاً أو أخوات أو أباً أو أماً أو امرأة أو بيتاً أو حقلاً من أجل اسـمي يأخذ مائة ضـعف ويرث حياة الأبد، وقال لوقا: ما من أحد ترك منزلاً أو والدين أو إخوة أو امرأة أو مالاً من أجل ملكوت الله إلا وينال العوض أضـــعافاً كثيرة في هذا الزمان وفي الدهر الآتي حياة الأبد، وقال متى وغيره: كثيراً أولون يصيرون آخرين: وأخرون يصيرون أولين، يشبه ملكوت السماوات إنساناً رب بيت خرج الغداة ليستأجر فعله لكرمه، فشارك الأكرة على دينار واحد في اليوم- إلى آخر ما

مضى في الأعراف من البشارة بأمة محمد صلى الله عليه وسلم في مثل الفعلة في الكرم الذي فضل آخرهم وهو العامل قليلاً على من عمل أكثر النهار وقد ساقه ابن برجان في آخر تفسير سورة الحديد عن الإنجيل بعبارة أخرى تفسيراً كثيراً من عبارة النسخة التي نقلت ذاك منها، فأحببت أن أذكر عبارة ابن برجان هنا تكميلاً للفائدة، قال: وفي الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل: وكثيراً يتقدم الآخرون الأولون ويكون الأولون ساقة الآخرين: ولذلك يشبه ملكوت السماوات برجل ملي خرج في استئجار الأعوان لحفر كرم في أول النهار، وعامل كل واحد في نهاره على درهم ثم أدخلهم كرمه، فلما كان في الساعة الثالثة بصر لغيرهم في الرحاب لا شغل لهم فقال: اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم وسآمر لكم بحقوقكم، ففعلوا، ثم فعل مثل ذلك في الساعة السادسة والتاسعة، فلما كان في الساعة الإحدى عشرة وجد غيرهم وقوفاً فقال لهم: لم وقفتم هنا طول نهاركم دون عمل؟ فقالوا له: إنا لم يستأجرنا أحد، فقال لهم: اذهبوا أنتم سآمر لكم بحقوقكم، فلما انقضى النهار قال لوكيله: ادع الأعوان وأعطهم أجرتهم وابدأ بالآخرين حتى تنتهي إلى الأولين، فبدأ بالذين دخلوا في الساعة الإحدى عشرة وأعطى كل واحد منهم درهماً، فأقبل الأولون وهم الذين يرجون الزيادة، فأعطى كل واحدٍ منهم درهماً، فاستذكروا ذلك على صاحب الكرم وقالوا: سويتنا بالذين لم يعملوا إلا ساعة من النهار في شخوصنا طول نهارنا وعذابنا بحرارته، فأجاب أحدهم وقال: لست أظلمك يا صديق، أما عاملتني على درهم فخذ حقك وانطلق فإنه يوافقني أن أعطي الآخر كما أعطيتك، أفلا يحل لي ذلك ؟ وإن كنت

حسوداً فإني أنا رحيم، ومن أجل ذلك يتقدم الآخرون الأولين، ويكون الأولون ساقة الآخرين فالمدعوون كثير، والخيرون قليل، وذكر ابن برجان أن الساعة السادسة لعيسى عليه السلام وأصحابه في أول الأمر والتاسعة لمحمد صلى الله عليه وسلم والحادية عشرة لآخر الزمان- كأنه يعني ما بعد الدجال من أيام محمد صلى الله عليه وسلم التي يكون فيها عيسى عليه السلام مجدداً، ولهذا جعلهما النبي صلى الله عليه وسلم التي يكون فيها عيسى عليه السلام مجدداً، ولهذا جعلهما النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الصحيح شيئاً واحداً من العصر إلى غروب الشمس، ثم قال متى في بقية ما مضى من الإنجيل في النسخة التي نقلت منها عقب ما تقدم أنه في الأعراف: فصعد يسوع إلى يروشليم وأخذ الاثني عشر، حينئذ جاءت إليه أم ابني زبدي- هما يعقوب ويوحنا- مع ابنيها وسجدت له، فقال لها: ماذا تريدين؟ قالت: أن يجلس ابناي أحدهما عن يمينك والآخر عن يسارك في ملكوتك، أجاب يسوع: أما جلوسهما عن يميني ويساري فليس لي بل للذي أعده لهم ربي، فلما سمع العشرة تقمقموا على الآخرين- وقال مرقس: على يعقوب ويوحنا- فدعاهم يسوع وقال لهم: أما علمتم أن رؤساء الأمم يسودونهم وعظماءهم مسلطون عليهم، ليس هكذا يكون فيكم، لكن من أراد أن يكون فيكم كبيراً فيكون لكم خادماً، ومن أراد أن يكون فيكم أولاً فيكون لكم عبداً، وقال مرقس: فيكون آخر للكل وخادماً للجميع، كذلك ابن الإنسان لم يأت ليخدم بل ليخدم، ويبذل نفسه فداء عن كثير، فلما خرج من أريحا تبعه جمع كثير وإذا أعميان جالسان على الطريق فسمعا أن يسوع مجتاز فصرخا قائلين:

ارحمنا يا رب يا ابن داود، فوقف يســوع ودعاهما وقال لهما : ما تريدان أن أفعل لكما، قالا له : يا رب، أن تفتح أعيننا، فتحنن يســـوع ولمس أعينهما وللوقت أبصـــرت أعينهما وتبعاه، وعبارة مرقس عن ذلك : وجاء إلى أريحا وخرج من هناك وتبعه تلاميذه وجمع كثير وإذا طيماس بن طماس الأعمى جالس يسأل عن الطريق- وقال لوقا: يتوسل- فسمع الجمع المجتاز فسأل: ما هذا، فأخبروه أن يسوع الناصري جاء، وقال مرقس: فلما سمع بأن يسوع مقبل بدأ يصـــيح ويقول : يا يســـوع الناصـــري ابن داود ارحمني، فانتهروه ليســكت، فازداد صــياحاً قائلاً: يا رب يا ابن داود، ارحمني، فوقف يســوع وقال : ادعوه، فدعي الأعمى وقالوا له : ثق وقم فإنه يدعوك، وطرح ثوبه ونهض وجاء إلى يسوع فأجابه يسوع وقال له: ما تريد أن أصنع بك؟ فقال له الأعمى: يا معلم، وقال لوقا: يا رب- أن أبصر، فقال له يسوع: اذهب إيمان خلصــك، وللوقت أبصـــر، وتبعه في الطريق- قال لوقا : يمجد الله- وكان جميع الشعب الذين رأوه يسبحون الله.

وقال أيضاً: وكان بينما هو منطلق إلى يروشليم اجتاز بين السامرة والجليل، وفيما هو داخل إلى إحدى القرى اسـتقبله عشـرة رجال برص فوقفوا من بعيد ورفعوا أصواتهم قائلين: يا يسوع الملعم ارحمنا! فنظر إليهم وقال لهم: اذهبوا وأروا أنفســـكم للكهنة، وفيما هم منطلقون طهروا، فلما رأى أحدهم أنه قد طهر رجع بصــوت عظيم بمجد الله وخر على وجهه عند رجليه شــاكراً له، وكان سـامرياً، أجاب يسـوع وقال: أليس العشـرة قد طهروا فأين التسـعة، ألم

يجدوا ليرجعوا ويمجدوا الله ما خلا هذا الغريب، ثم قال له: قم فامض، إيمانكم خلصك.

قال متى: ولما قربوا من يروشليم وجاؤوا إلى بيت فاجي عند جبل الزيتون- وقال مرقس: عند باب فاجي وبيت عنيا جانب طور الزيتون- قال متى: حينئذ أرسل يسوع اثنين من تلاميذه: وقال لهما: اذهبا إلى القرية التي أمامكما فتجدان أتانه مربوطة وجحشاً معهما فحلاهما وائتياني بهما! فإن قال لكما أحد شيئاً فقولا له: إن الرب محتاج إليهما! فهو يرسلهما للقوت، كان هذا ليتم ما قيل في النبي القائل قولوا لابنة صهيون هوذا ملكك يأتيك متواضعاً راكباً على أتانه وجحش ابن أتانة، فذهب التلميذان وصنعا كما أمرهما يسوع، فأتيا بالأتانة والجحش وتركوا ثيابهم عليهما، وجلس معهما، وجمع كثير فرشوا ثيابهم في الطريق وآخرون قطعوا أغصاناً من الشجر وفرشوها في الطريق، وعبارة مرقس عن ذلك: تجد أن جحشاً مربوطاً لم يركبه أحد من الناس قط، فحلاه وائتيا به، فإن قال لكما أحد: ما تفعلان بهذا؟ فقولا: إن الرب محتاج إليه من ساعة يرسله، فذهبا ووجدا الجحش مربوطاً عند الباب خارجاً عن الطريق فحلاه فقال لهما قوم من القيام هناك: ما تصنعان؟ فقالا لهم كما قال يسوع فتركوهما، وجاءا بالجحش إلى يسوع فألقوا عليهم ثيابهم وجلس عليهم وكثير بسطوا ثيابهم في الطريق وآخرون قطعوا أغصاناً من الحقل وفرشوها في الطريق.

قال متى: والجمع الذي تقدمه والذي تبعوا صرخوا قائلين: أوصنا يا ابن داود مبارك الآتي باسم الرب، قال مرقس: ومباركة المملكة الآتية باسم الرب

لأبينا داود أوصـــنا في العلاء، وقال لوقا : وكان لما قرب من منحدر جبل الزيتون بدأ جمع الملأ والتلاميذ يفرحون ويســـبحون الله ويمجدونه بجميع الأصوات من أجل القوات التي نظروا قائلين: تبارك الملك الآتي باسم الرب والسـلامة في السـماء والمجد في العلا، وقوم من الفريسـيين من بين الجمع قالوا له : ما معلم انتهر تلاميذك، فقال لهم : إن ســـكت التلاميذ نطقت الحجارة، فلما قرب نظر المدينة وبكى عليها وقال : لو علمت في هذا اليوم ما لك فيه من الســلامة، فأما الآن فإنه قد خفي عن عينيك، وسـوف تأتي أيام تلقى أعداؤك معلمك ويحيطون بك ويضـــيقون عليك من كل موضـــع ويقتلونك وبنيك فيك ولا يتركون فيك حجراً، وقال متى : فلما دخل إلى يروشليم ارتجت المدينة كلها قائلين: من هذا؟ فقال الجمع: هذا يسوع النبي الذي هو من ناصـرة الجليل، فدخل يسـوع إلى هيكل الله وأخرج جميع الذين يبيعون ويشـترون في الهيكل وقلب موائد الصـيارف وكراسـي باعة الحمام وقال لهم : مكتوب أن بيتي بيت الصـــلاة يدعى، وأنتم جعلتموه مغارة للصـوص. وقال يوحنا : فصـعد يسـوع إلي يروشـليم فوجد في الهيكل باعة البقرة والكباش والحمام وصـيارف جلوسـاً، فصـنع محضـرة من حبل وأخرج جميعهم من الهيكل فطرد البقر والخراف وبدد دراهم الصـــيارف وقلب موائدهم، وقال متى : وقدم إليه عميان وعرج في الهيكل فشـــفاهم، فرأى رؤساء الكهنة العجائب التي صنع والصبيان يصيحون في الهيكل ويقولون: أوصـنا يا ابن داود، مبارك الآتي باسـم الرب، فتقمقموا وقالوا : ما تسـمع ما يقول هؤلاء، فقال لهم يســـوع : نعم، أما قرأتم قط أن من فم الأطفال

والمرضعين أعددت سبحاً، وتركهم وخرج خارج المدينة وبات هناك في بيت هنيا وفي غد عبر إلى المدينة فجاع ونظر إلى شـــجرة تين على الطريق فجاء إليها فلم يجد فيها شـــيئاً إلا الورق، فقال لها: لا يخرج منك ثمرة إلى الأبد، فيبست تلك الشجرة للوقت، فنظر التلاميذ وتعجبوا وقالوا: كيف يبست التينة للوقت، أجاب يسوع وقال لهم: الحق أقول لكم! إن كان لكم إيمان ولا تشكون ليس مثل هذه الشجرة التين فقط تصنعون ولكن تقولون لهذا الجبل: تعال واسقط في البحر، فيكون، وقال مرقس: إن كان لكم إيمان بالله، لحق أقول لكم: إن من قال لهذا الجبل: انتقل واسقط في هذا البحر، ولا يشك في قلبه بل يصـــدق فيكون له الذي قال، من أجل هذا أقول لكم: إن كل ما تســألونه في الصـــلاة بإيمان أنكم تنالونه فيكون لكم، وقال متى: وكل ما تسـألونه في الصـــلاة بإيمان تنالونه، وقال مرقس: فقال له يوحنا، يا معلم! رأينا واحداً يخرج الشياطين باسمك فمعناه لأنه لم يتبعنا، قال لهم يسوع: لا تمنعوه ليس يصنع أحد قوة باسمي، ويقدر سريعاً أن يقول على الشر، كل من ليس هو عليكم فهو معكم ومن سـقاكم كأس ماء باسـم أبيكم المسـيح الحق أقول لكم: إن أجره لا يضيع.

وفيه مما لا يجوز إطلاقه في شـــرعنا إطلاق الأب على الله وإطلاق الرب على غيره بلا قيد، وقد تقدم التنبيه على مثل ذلك غير مرة- والله الهادي للصواب.

▲ تفسير الآيات رقم [28- 29]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (28)

لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)}

ولما قرر سبحانه أن الرسل دعاة للحق إلى سيدهم طوعاً أو كرهاً بالكتاب والحديد، وقرر أن السعادة كلها في اتباعهم، وأن البدع لا تأتي بخير وإن زين الشيطان أمرها وخيل أنه خير، وأن أصحاب الذي كان نسخ شريعة من قبله ابتدعوا بدعة حسنة فوكلوا إليها ففسق أكثرهم، فاقتضى ذلك إرسال من ينسخ كل شريعة تقدمته نسخاً لا زوال له لأنه لا نبي بعده ونهى عن البدع نهياً لم يتقدمه أحد إلى مثله، أنتج ذلك قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا} أي أقروا بذلك إقراراً صحيحاً بنبي مما تقدم أو بالنبي صلى الله عليه وسلم {اتقوا الله} أي خافوا عقابه فاجعلوا بينكم وبين سخطه- لأنه الملك الأعظم- وقاية بحفظ الأدب معه ولا تأمنوا مكره، فكونوا على حذر من أن يسلبكم ما وهبكم، فاتبعوا الرسول تسلموا، وحافظوا على اتباعه لئلا تهلكوا {وآمنوا برسوله} أي الذي لا رسول له الآن غيره، إيماناً مضموماً إلى إيمانكم بالله فإنه لا يصح الإيمان به إلا مع الإيمان برسوله، وبأن تثبتوا على الإيمان به، وتضموا الإيمان به إلى الإيمان بمن تقدمه يا أهل الكتاب، لأن رسالته عامة، لقد نسخ جميع ما تقدمه من الأديان فإياكم أن يميلكم عنه ميل من حسد أو غيره، فبادروا إلى إجابته والزموا جميعاً حذره فلا تميلوا إلى بدعة

أصلاً {يؤتكم} ثواباً على اتباعه {كفلين} أي نصيبين ضخمين {من رحمته} تحصيناً لكم من العذاب كما يحصن الكفل الراكب من الوقوع، وهو كساء يعقد على ظهر البعير فيلقى مقدمه على الكاهل ومؤخره على العجز، وهذا التحصين لأجل إيمانكم به صلى الله عليه وسلم وإيمانكم بمن تقدمه مع خفة العمل ورفع الأصار وهو أعلى بالأجر من الذي عمل الخير في الجاهلية، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمن سأله عنه «أسلمت على ما أسلفت من خير» ودل على أن الكفلين برفع الدرجات وإفاضة خواص من الخيرات بقوله: {ويجعل لكم} أي مع ذلك {نوراً} مجازياً في الأولى بالتوفيق للعمل من المعلوم والمعارف القلبية وحسياً في الآخرة بسبب العمل {تمشون به} أي مجازاً في الأولى بالتوفيق للعمل، وحقيقة في الآخرة بسبب العمل.

ولما كان الإنسان لا يخلو من نقصان، فلا يبلغ جميع ما يحق للرحمن، قال: {ويغفر لكم} أي ما فرط منكم من سهو وعمد وهزل وجد. ولما قرر سبحانه وذلك، أتبعه التعريف بأن الغفران وما يتبعه صفة له شاملة لمن يريده فقال: {والله} أي المحيط بجميع صفات الكمال والعظمة والكبرياء {غفور} أي بليغ المحو للذنب عيناً وأثراً {رحيم *} أي بليغ الإكرام لمن يغفر له ويوفقه للعمل بما يرضيه.

ولما كان أهل الكتاب قد تابعوا أهويتهم على بغض الأميين، وأشربت قلوبهم أن النبوة مختصة بهم لأنهم أولاد إبراهيم عليه السلام من ابنة عمه، والعرب– وإن كانوا أولاده– فإنهم من الأمة وما دروا أن كونهم من أولاده مرشح لنبوة بعضهم وكونهم من الأمة، مهيئ لعموم الرسالة لأجل عموم

النسب، قال دالاً على أنهم صاروا كالبهائم لا يبصرون إلا المحسوسات معلقاً الجار ب {آمنوا} و{يؤتكم} وما بعده: {لئلا يعلم} أي ليعلم علماً عظيماً يثبت مضمون خبره وينتفي ضده- بما أفاده زيادة النافي {أهل الكتاب} أي من الفريقين الذي اقتصروا على كتابهم وأنبيائهم ولم يؤمنوا بالنبي الخاتم وما أنزل {ألا} أي أنهم لا {يقدرون} أي في زمن من الأزمان {على شيء} أي وإن قل {من فضل الله} أي الملك الأعلى الذي خصكم بما خصكم به لا يمنع ولا بإعطائكم حيث نزع النبوة منهم ووضعها في بني عمهم إسماعيل عليه السلام الذي كانوا لا يقيمون لهم وزناً فيقولون: إنهم بنو الأمة، وإنهم أميون، وإنهم ليس عليهم منهم سبيل، وجعل النبوة التي خصكم بها عامة- كما أشار إليه ما في ابن الأمة من شمول بنسبته وانشعابه وحيث عملوا كثيراً وأعطوا قليلاً: «اليهود من أول النهار على قيراط قيراط، والنصارى من الظهر على قيراط قيراط، وهذه الأمة من صلاة العصر على قيراطين قيراطين، فقال الفريقان: ما لنا أكثر عملاً وأقل أجراً، قالك هل ظلمتكم من حقكم شيئاً، قالوا: لا، قال: ذلك فضلي أوتيه من أشاء» وذكر ابن برجان معنى هذا الحديث- كما تقدم عنه قريباً- من الإنجيل وطبقه عليه وذكرته أنا في الأعراف، روى الإمام أحمد في مواضع من المسند والبخاري في سبعة مواضع في الصلاة والإجارة وذكر بني إسرائيل وفضائل القرآن والتوحيد، والترمذي في الأمثال- وقال: حسن صحيح- من وجوه شتى جمعت بين ألفاظها عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثلكم»- وفي هذه الرواية: «مثل هذه الأمة»، وفي رواية:

«مثل أمتي» وفي رواية : إنما مثلكم ومثل اليهود والنصـــارى كرجل، وفي رواية: «مثلكم ومثل أهل الكتابين كمثل رجل استعمل عملاء»، وفي رواية: «اســتأجر أجراء» فقال: «من يعمل لي من صـــلاة الصـــبح» وفي رواية أخرى: «من غدوة إلى نصف النهار على قيراط، ألا فعملت اليهود»- وفي رواية: «قالت اليهود: نحن- فعملوا، ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط، ألا فعملته النصارى»، وفي رواية: «قالت النصـــارى: نحن، فعملوا، ثم قال: من يعمل لي من صـــلاة العصـــر إلى غروب الشمس«

-وفي رواية : إلى أن تغيب الشـــمس- «على قيراطين قيراطين، ألا فأنتم الذين عملتم»، وفي رواية: «تعملون»، وفي رواية «وأنتم المسلمون تعملون من صـــلاة العصـــر إلى الليل»، وفي رواية «إلى مغارب»، وفي رواية : «مغرب الشـــمس على قيراطين قيراطين قيراطين ألا لكم الأجر مرتين، فغضـــبت اليهود والنصـــارى» وقالوا : «نحن»- وفي رواية : «ما لنا- أكثر عملاً وأقل عطاء»، وفي رواية «أجراً، قال الله تعالى هل»- وفي رواية : «وهل- نقصـــتكم-» وفي رواية : «هل ظلمتكم- من حقكم شـــيئاً-» وفي رواية : «أجركم شـــيئاً، قالوا : لا، قال : فإنه»- وفي رواية : «فإنما- هو فضل»، وفي رواية: «فذلك فضلي أوتيه من أشاء»، وفي رواية: «أعطيه من شئت» وفي رواية: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائم على المنبر يقول : «ألا إن بقاءكم»، وفي رواية : «إنما بقاؤكم»، وفي رواية : «إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم»- وفي رواية : «فيما ســـلف من

قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر والمغرب»- وفي رواية: «إلى غروب الشـــمس»، وفي رواية: «ألا إن مثل آجالكم في آجال الأمم قبلكم كما بين صلاة العصر إلى مغيربان»، وفي رواية: «إلى مغرب»، وفي رواية: «إلى مغارب الشـــمس، أعطي»- وفي رواية: «أوتي- أهل التوراة التوراة، فعملوا بها حتى انتصـــف النهار فعجزوا، فأعطوا قيراطاً قيراطاً، وأعطي»- وفي رواية: «ثم أوتي- أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به حتى»- وفي رواية: «إلى- صـــلاة العصـــر»، وفي رواية «حتى صـــليت العصـــر، ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أعطيتم القرآن فعملتم به حتى غربت الشـــمس»، وفي رواية: «حتى غروب الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين»، وفي رواية: «ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأعطينا قيراطين قيراطين، فقال أهل الكتابين»- وفي رواية: «أهل التوراة والإنجيل- ربنا هؤلاء أقل منا عملاً وأكثر أجراً»، وفي رواية: «جزاء»، وفي رواية: «أي ربنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطتينا قيراطاً قيراطاً، ونحن أكثر عملاً منهم، قال الله تبارك وتعالى: هل» وفي رواية: «فهل ظلمتكم من أجركم»- وفي رواية: «من أجوركم- من شـي؟ فقالوا: لا، فقال: فهو فضـلي»، وفي رواية «فذلك فضلي، أوتيه من أشاء» وقد أخذ بعض العلماء من هذا الحديث ما قبل هذه الأمم وترك على ذلك أحوالهم فقال: إنه دال على قوم نوح وإبراهيم عليهما السـلام، كان لهم الليل، فكان قوم نوح في أوله في ظلام صـرف طويل لم يلح لهم شـيء من تباشـير الضـياء ولا أمارات الصـبح، ونوح عليه السـلام يخبرهم به ويأمرهم بالتهيؤ له، فلذلك طال بلاؤه عليه السـلام بهم، وما آمن

معه إلا قليل، وأما قوم إبراهيم عليه السلام فكانوا كأنهم في أواخر الليل، قد لاحت لهم تباشير الصباح وأومضت لهم بوارق الفلاح، فلذلك آمن لوط عليه السلام وكذا سارة زوجته وأولاده منها ومن غيرها كلهم، واستمر الإسلام في أولاده والنبوة حتى جاء موسى عليه السلام، فكان وقته كما بين الصبح والظهر، فكان قومه تارة وتارة، تارة يحسبون أنهم في ضياء كيفما كانوا، فيروغون يميناً وشمالاً فيكونون كمن دخل غيراناً وكهوفاً وأسراباً ثم يخرجون منها فيرجعون إلى الضياء، فكانت غلطاتهم تارة كباراً وتارة صغاراً، وأما قوم عيسى عليه السلام فكانوا كمن هو في الظهيرة في شدة الضياء فالغلط منه لا يكون إلا عن عمى عظيم، فلذلك كان غلطهم أفظع الغلط وأفحشه- والله الموفق- {وإن} أي ولتعلموا أن {الفضل} أي الذي لا يحتاج إليه من هو عنده {بيد الله} أي الذي له الأمر كله {يؤتيه من يشاء} منهم أو من غيرهم نبوة كانت أو غيرها.

ولما كان ربما ظن ظان أنه لا يخص به إلا لأنه لا يسع جميع الناس دفع ذلك بقوله: {والله} أي الذي أحاط بجميع صفات الكمال {ذو الفضل العظيم * } أي مالكه ملكاً لا ينفك عنه ولا ملك لأحد فيه معه ولا تصرف بوجه أصلاً، فلذلك يخص من يشاء بما يشاء، فلا يقدر أحد على اعتراض بوجه، فقد نزه له التنزيه الأعظم جميع ما في السماوات والأرض فهو العزيز الحكيم الذي لا عزيز غيره ولا حكيم سواه، فقد انطبق كما ترى آخرها على أولها، ورجع مفصلها على موصلها- والله الهادي للصواب وإليه المرجع والمآب.